INSTITUT DU MONDE ARABE

معهد العالم العربي

كرسي المعهد

King Faisal PRIZE

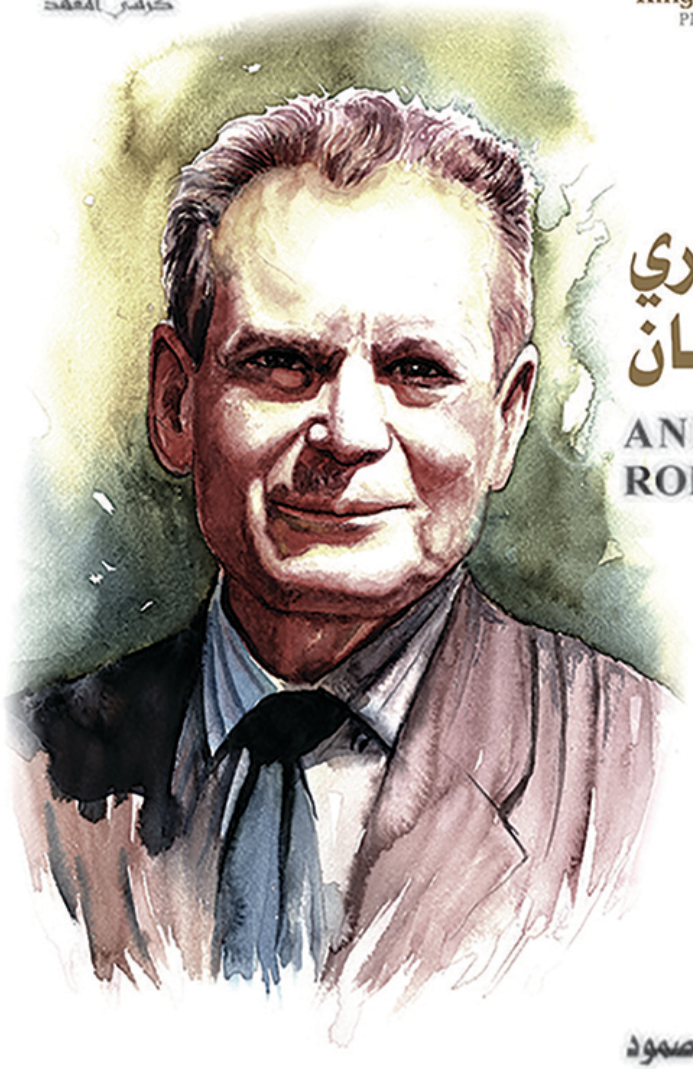

أندري رومان

ANDRÉ ROMAN

حمادي صمود

100 كتاب وكتاب

15

أندري رومان

الكتاب : أندري رومان
المؤلف : **حمادي صمود**
الطبعة : الأولى 2020
عدد الصفحات : 128
القياس : 13 × 19
الإيداع القانوني : 2019MO5757
الترقيم الدولي : 978-9920-627-19-1

جميع الحقوق محفوظة

المركز الثقافي للكتاب

الدار البيضاء / المغرب
6، زنقة التيكر
هاتف : 212522810406+
فاكس : 212522810407+
markazkitab@gmail.com

بيروت / لبنان
الحمراء ـ شارع المقدسي ـ بناء بلبيسي
هاتف : 9611747422+
فاكس : 9611744733+

INSTITUT
DU MONDE
ARABE
معهد العالم العربي
كرسي المعهد

King Faisal
PRIZE

أندري رومان

حمادي صمود

المركز الثقافي للكتاب
للنشر والتوزيع

المحتويات

عتبـــة .....

ترجمته .....

مؤلفاته.....

I ـ الإسلاميات.....

II ـ الترجمة.....

الدّراسات الأدبيّة.....

الدّراسات اللغويّة.....

نماذج من تفكيره اللّغوي من نصوص كتبها باللغتين الفرنسية والعربيّة.....

ما قال فيه أصحابه ومريدوه.....

تحيّة إكبار وتقدير لأندري رومان.....

عتبـة

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروع معرفي طموح، تبنته ونفذته مؤسستان ثقافيتان كبيرتان، هما "جائزة الملك فيصل" بالرياض، و"معهد العالم العربي" في باريس، ممثلاً في "كرسي المعهد". يهدف هذا المشروع إلى التعريف بمائة عالم وباحث، من العرب والفرنسيين، ساهموا في تقديم إحدى الثقافتين للأخرى. لقد كرس هؤلاء الباحثون والمثقفون، العرب والفرنسيون، جهودهم لتعزيز مختلف أشكال الحوار الجاد، والتفاعل الخلاق بين ضفتي المتوسط، خلال القرنين الماضيين. وبفضل منجزاتهم الاستثنائية استحقوا الاحتفاء بهم، والكتابة عنهم، من أجل تخليد ذكراهم، والتعريف بهم لدى الأجيال التالية؛ التي نأمل أن ينظروا إليهم باعتبارهم رموزاً مشعة، تلهم العقول، وتضيء مسالك المستقبل، لكل من يعي أن الثقافة بمكوناتها العلمية والفكرية والجمالية، هي الطريق الأمثل للتعارف والتعاون بين البشر.

اختيار ستين شخصية عربية، وأربعين شخصية فرنسية، جاء نتيجة لعمل مهني متصل، بذلته لجنة علمية مشتركة

على مدار أشهر. حرصت اللجنة أن تكون الأسماء المختارة ممثلة، قدر الممكن، لمختلف الفترات التاريخية، والتخصصات المعرفية، والتوجهات الفكرية والإبداعية. إننا ندرك تمامًا أن في كل اختيار مخاطرة. ولو كتبنا عن ألف شخصية وأكثر، فسيظل هناك أعلام يستحقون الحضور ضمن هذه السلسلة.

يتوجه هذا المشروع الثقافي إلى قارئ عام يقظ، قد يدفعه فضوله إلى المزيد من البحث المعمق في منجزات هؤلاء الوسطاء الثقافيين، الذين طالما استمتعنا بكتاباتهم، وأفدنا من أفكارهم الغنية المجددة.

إنها قناعة من المؤسستين بإضاءة مائة شمعة، تدشينًا لعمل مفتوح، نأمل أن يتممه آخرون من بعدنا، وهنا يحقق المشروع أهدافه الأكثر جمالاً ونبلاً.

خالص التقدير للمؤلفين، الذين آمنوا معنا بالفكرة، وساهموا في تحقيقها. والشكر الأوفر لصاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل، رئيس هيئه الجائزة، والسيد جاك لانغ، رئيس المعهد، لدعمهما ومتابعتهما للمشروع. والله الموفق.

أمين عام الجائزة	مدير عام المعهد
عبد العزيز السبيل	معجب الزهراني

ترجمته

وُلد أنْدري رُومان (André Roman) في تونس، يوم الثالث والعشرين من أكتوبر، سنة 1928. قضى طفولته الأولى بواحة من واحات الجنوب التّونسيّ، حيث كان والده يملك غابة نخيل، يستغلّها زمن الحماية الفرنسيّة، ولم يغادرها إلاّ بعد الحصول على الامتحان المؤهّل للالتحاق بالتّعليم الثّانويّ، في العاصمة تونس وفيها تحصّل على شهادة البكالوريا سنة 1946. إلّا أنّه لم يلتحق بالتّعليم العالي كما جرتْ العادة بالنّسبة إلى الناجحين الذين تسمح ظروفهم العائلية بذلك، وإنّما عاد إلى غابة النّخيل، ولم يغادرها إلاّ لأداء واجب الخدمة العسكريّة، وإثر ذلك التحق بالجامعة في قسم الدّراسات العربية، فنال الإجازة، وقد كانت في ذلك الوقت لا تنّم لصاحبها إلاّ بشهادة مكمّلة في الآداب الفرنسيّة، نالها سنة 1958. وقد قام بكلّ ذلك وهو "قيّم" في معهد من معاهد التّعليم المشهورة، وهو معهد " كارنو" (Lycée Carnot)، وقد أرادته الحماية معادلاً للمدرسة الصّادقية التي كانت ثمرةً أولى من ثمار الفكر الإصلاحي التونسي. وفي معهد كارنو مرّ جزء من طلائع الأجيال التّونسيّة التي بَنَتْ مع الصّادقيّين دولة الاستقلال، وفيه ربطت أندري رومان صداقة بكثير من التّونسيّين، ممّن ساعدهم الحظّ،

فوجدوا شغلاً في خُطّة "قيّم"، ومن هذه الصّداقات ما استمرّ عُمرًا كاملاً، كما هو الشأن بينه وبين الأستاذ عبد القادر المهيري، وسنرى أثر هذه العلاقة في تطوير الدّراسات العربية، وتعميقها بين الجامعات الّتى انتميا إليها، وكانت لهما فيها مسؤوليات بيداغوجية وبيداغوجية أكاديميّة.

بدأ حياته المهنية في التّعليم أستاذًا في المعهد الذي كان فيه "قيّمًا"، ولكن سرعان ما تأزّمت العلاقات بين تونس وفرنسا، جرّاء "حرب بنزرت"، فقرّرت الدّولة التّونسيّة الاستغناء عن الخبـــرات الفرنسيـــة فـي التعليم، فكان أن عُيّن بمعهد "أمبير" (Ampère) بمدينة ليون الفرنسية. لم يشعر في هذا المحيط الجديد بالرّاحة؛ لأنّه في نظر الكثير من زملائه ينتمي إلى ما كان الفرنسيّون يطلقون عليهم " الأرْجل السّود"، وهي تسمية خصّوا بها الفرنسيين من سكّان الجزائر، وامتدّ استعمالها إلى فرنسيّي شمال أفريقيا، وقد يكون الأصل فيها من وطئت قدمه القارّة الأفريقيّة، باعتبارها القارّة السّوداء، أو السّمراء، تلطيفًا. فسعى إلى ظروف للعمل أكثر راحة وأكثر تحفيزًا على إنجاز طموحه في البحث، أسوة بكبار المستشرقين من حوله، فوقع إلحاقُه من 1967 إلى 1971 ثمّ من 1973 إلى 1975 بمعهد للآداب الشرقيّة في جامعة القدّيس يوسف في بيروت، وقد كان تابعًا لكلّية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة "ليون" الفرنسية، ومديره أحد الآباء اليسوعيّين المشهورين، هو ميشال ألاّر (Michel Allard)

ـ توفّي سنة 1976، في الحرب الأهليّة اللّبنانية، بقذيفة طائشة ـ وقد تمثّل التعاون بينه وبين أندري رومان في كلّ ما يتعلّق بالأدب والفكر العربيين، وبأمور أخرى كانت تُعدّ في ذلك الوقت فتحًا مبينًا في البحوث العربيّة بصفة خاصّة، وهو الاستفادة من الإعلاميّة في التّعامل مع النّصوص العربيّة، للوقوف على ممكناتها التي لا يستطيع النهج التّقليدي الوصول إليها بسهولة. وقد عمل مدير المعهد على اقتناء حاسوب في أشكاله ونُظُمه البدائية، حيث الفهارس والجذاذات مكوّنة من حزم من الأوراق حفزها الحاسوب، وكان نقلها من مكان إلى آخر يدويًّا، مع الحذر التامّ من أن تسقط أو تنخرم، ممّا يستوجب إعادة لفّها. وسنرى عند استعراضنا لمؤلفات الرّجل نتائج هذا الشغف والأعمال الهامّة، في ذلك الوقت الذي نتجت عنه.

كما اشتدّ تعاونه في هذه الفترة في ميدان الدّراسات اللّغويّة واللّسانيّة مع كلفنباخ (Kolvenbach)، وسنرى كيف استطاع هذا الاختصاص أن يُهيمن على صاحبنا، حتى أصبحت الدّراسات التي قام بها في غيره جزءًا من مساره العلمي، لا أكثر، ولا أقل.

يقول أستاذ البلاغة الشهير في الجامعات الفرنسية والجامعة التونسيّة "ميشال لُوقارّن" (Michel leguern) في تأبينه بعد وفاته يوم 21 فيفري 2012، ما ترجمته:

"في هذا بعينه لم أقابل شخص أندري رومان، ولكن صيته وإشعاعه، كان ذلك في بيروت، ربيع 1972، وكنت في مهمة

تتعلّق بالتعليم في معهد الآداب الشّرقيّة والمدرسة العليا للآداب. لم يعد أندري رومان مقيمًا إذ ذاك في بيروت، ولكنّ اسمه كان على كلّ لسان إن تعلّق الأمر بعلم الأصوات أو اللّسانيات أو الإعلامية. كان الهدف الرئيس من زيارتي تركيز التعليم في اللّسانيات بمعهد الآداب الشرقيّة، وكنت في كلّ مرّة أصوغ ما يبدو لي فكرة معقولة مقبولة، يقول لي أحد المحاورين - وقد كان في الغالب الأعمّ ميشال ألاّر والأب كلفنباخ: "هذا ما ذهب إليه أندري رومان، وكان ذلك أقوى طريقة [عندهم] في موافقتي".

ويكتنف الغموض الفترة مابين 1972 و 1975. ذلك أنّنا نراه - وقد عُيّن أستاذًا مساعدًا في قسم الدّراسات العربيّة بجامعة بروفانْس"، في فرنسا - ينشر ببيروت، كما سنرى دراسته عن بشار وتجربة الحبّ من خلال أشعاره. وقد وجدت ترجماته لشعر بشار استحسانًا ورواجًا نوّه به المستعربون، ونوّه به زملاؤه ممّن لا يعرفون العربيّة، ولا قرؤوا شعر بشار، ومع ذلك أدركوا من التّرجمة قيمة الشاعر والشّعر.

وفي سنة 1975 ناقش في جامعة ليون 2، أطروحته لدكتوراه الحلقة الثالثة، وموضوعها: "رؤية إنسانية لقيام السّاعة: كتاب التوهّم للمحاسبي". وقد سبق له الاهتمام بهذا الكتاب، كما سنبيّن عند الحديث عن مؤلفاته، وهو في بيروت، إذْ دفعه اهتمامه مع بعض زملائه بالإعلاميّة إلى وضع "موافقات" لهذا

المؤلّف، تجاوزت الألفي صفحة. وقد نُشرت الأطروحة سنة 1978، في إحدى دور النّشر الفرنسيّة المرموقة، وهي دار كلينـسيك (Klincksieck).

وبعد ذلك التّاريخ بأربع سنوات، أي سنة 1979، ناقش رُومان بجامعة باريس 3، أو السوربون الجديدة، رسالة دكتوراه دولة، وموضوعها دراسة لصرف العربيّة ووظائف أصواتها، وقد استعمل مصطلحًا كان جاريًا في أوساط المستشرقين الفرنسيين وغير الفرنسيين، ممّن اهتمّوا بتاريخ الألسنة، والألسنة السّامية على وجه الخصوص، وهو (Koinè arabe). يشيرون بذلك إلى اللّغة المشتركة التي جاءت فيها أشعارهم وأخبارهم، على ما بين مستعمليها من اختلاف، إذا أخذوا في شؤون بعيدة عن الشعر وما إليه. وتُعدّ هذه الأطروحة غَلَبة لاهْتمامه اللّغويّ على ما كان يتنازعه من اهتمامات أخرى، كما يظهر من منشوراته إلى هذه الفترة. ثمّ إنّها ترسيخ لما سيصبح مذهبًا في دراسة اللّغة، يجمع إلى ما سنّه النّحاة القدامى من قواعد، وبنوا له من مدارس، في ضبط منوال اللّغة، وتحديد النّواميس المتحكمة في بنائها النّظريّ، والاهتمام بما وصلت إليه الدّراسات اللّسانية اليوم، وما سمحت به للباحثين من وجهات نظر ومناهج وتصوّرات، لقراءة ذلك التراث، والانتباه إلى ما فيه من جهود نظريّة، كان يبقى الكثير منها صامتًا مضمرًا إنْ لم يُنظر إليه بشبكة قراءة متطوّرة، مطعّمة بجديد المكتسبات.

والجدير بالملاحظة أنّ الأطروحة لم تكن بالنّسبة إليه نهاية مطاف، وإنّما لبنة أساسيّة في بناء سيُواصله إلى آخر حياته، بغية الإمساك بما يسمّيه في كثير من منشوراته "نسقيّة" اللّغة العربية، ومنها الوقوف على نشأة اللّغات الإنسانيّة، والنّموذج المهيمن على كلّ عائلة من تلك اللّغات.

وكان التحاقه أستاذًا بجامعة "ليون 2، سنة 1990، حاسمًا من جهات مختلفة، فليون مركز هامّ في تدريس اللّغة العربيّة يأتي في المركز الثاني أو الثالث بعد باريس، ثمّ إنّ التحاقه بها جاء في فترة عصيبة، كانت الدّراسات العربيّة فيها مهدّدة بالتشتّت، وربّما التلاشي، سببها توزّع الدّراسات العربية بين جامعتيْ ليون 2 وليون 3، وكان لذلك تأثير بعيد في قسم الدّراسات العربيّة بليون 2، بانتقال كثير من المستعربين إلى ليون 3، من بينهم الفرنسي من أصل تونسيّ عامر غديرة. فكان مجيئه طوق النّجاة، إذْ استطاع إقناع بعض الأساتذة بالانضمام إلى قسمه، وبعضهم كان في باريس، وأنشأ مدرسة الدكتوراه في الدّراسات العربيّة، ومركز الأبحاث في الترجمة والمصطلح، وأشرف -وهو يواصل أبحاثه التي أفاءت عليه بشهرة واسعة - على الكثير من الأطروحات، أنجز معظمها فرنسيّون من أصول عربيّة، ولئن غلبت التوجّهات اللغويّة والنّحوية على ما أشرف عليه، فذلك لم يمنعه من الإشراف على أطاريح في غير النظريات النحويّة واللغويّة. وقد نوّه بمستوى تلك الأطاريح بعض من أسهم في مناقشتها من اللغويين واللسانيين، من غير اختصاص العربيّة.

وكلّ من يعرف هذا الأستاذ، واستمع إلى محاضراته، وقرأ إنتاجه الغزير، يعلم أنّ اختصاصه لا ينحصر في اللّغة العربيّة، فلقد كان يتكلّم بألسنة عديدة، ويقرأ بأكثر منها. كان دائم القراءة بالإنجليزيّة والإيطاليّة والألمانية والرّوسيّة واللاّتينيّة أيضا. وقد ذكر صديقه الأستاذ "لوڤارن" أنّه كان قبل وفاته بسنة يقرأ "اعترافات" القدّيس اُغسطين، في لغتها الأصل.

ولقد رأيت عن كثب هذه القدرة، عندما دُعيت إلى جامعة ليون للتّدريس، وقد كان هو وراء هذه الدّعوة مع بعض الأساتذة، فرغّبني بالانضمام إلى فريق بحث اسمه Rhèma (وتعني في اليونانية "الكلمة"، وبشيء من التوسّع، تعني تحليل النّص والتعليق عليه).

كانت تشرف عليه أستاذة من كبار المختصّات في اللّسانيات العامّة هي السّيدة ريمي Rémi، ولا سيّما ما اتّصل منها بقضايا المعنى في أدق مناويلها المستحدثة. وكان هذا الفريق يتكوّن من مختصّين بألسنة مختلفة. ولقد بقي في ذهني إلى اليوم الاجتماع الذي تناول فيه المنتمون إلى الفريق مسألة أقسام الكلام، فدار الحديث على المسألة في أحد عشر لسانًا. وكانت إسهاماته مسموعة، وإن ذكر بعض أصفيائه -على سبيل المزاح والمداعبة - إفراطه في التجريد والبحث عن الأبنية التي لا يراها إلاّ فكر ثاقب، ومراس طويلٌ.

ويتفق جميع من تحدّثوا عنه على جدّيته وصرامته في تقدير الجهد النّظريّ، فيما ينشر، وفيما يُلقي على طلبته من محاضرات، وما يحمل عليه المسجّلون معه في بحوث، ولكنّه مع ذلك كان

سخيًّا، متفهّمًا، يحسب لكلّ طارئ حسابًا، ويضع كلّ جهد في شروطه المعرفيّة، والقصد الذي سعى إليه صاحبُه منه. ومن أبرز ما يدلّ على ذلك، تثمينه لجهود سابقيه من المستشرقين في التأليف في نحو العربيّة، في بحث سنشير إليه، أرّخ فيه لذلك التأليف من مطلع القرن السّادس عشر ميلادي إلى زمن كتابة مقاله. وهو تأليف كان يعتمد في الغالب على التراث العربي في النّحو، وعلى ما كان جاريًا في التأليف النّحوي التقليدي في لغاتهم، دون الاهتمام بما كان يجدّ من تغيّر في النّظر إلى اللغة، وفي المسالك والمناهج الجديدة المؤديّة إلى تجديد النظر إلى مناويلها وأبنيتها.

أمّا "رُومان" فقد كان كغيره من أبناء جيله من العرب، الّذين درسوا في الجامعات الغربيّة، واهتمّوا بالتحوّلات التي غيرّت - من بداية القرن العشرين إلى اليوم - النّظر إلى اللّغة، يحاول تطعيم شبكة القراءة التي يتوسّل بها، لقراءة التراث وفكر النحاة القدامى، ولذلك كان كما كانوا مجدّدين في دراسته، عاقدين الصّلة بينه وبين ما في التصوّرات الحديثة عن اللّغة من كفاءة عالية على استثارة المدفون، والإفصاح عن المكنون. ولذلك عدّت الأوساط العالمة النّحو الذي وضعه للعربيّة، وسمّاه ما ترجمته "نحو اللّغة العربيّة النسقي" (2011)، معلمًا من معالم هذا الالتقاء بين النظريات النحويّة العربيّة، والنظريات اللّسانية الحديثة. والحقّ أنّ أوساط المستعربين ممّن لهم بالنّحو والدّراسات اللغويّة اهتمام، لم تكن مستعدّة لمثل هذه المقابلة بين ما رشح عن

النظريّات النحويّة القديمة في كلّ مستويات اللغة، وما غنمته الدّراسات اللّغوية اللسانيّة في كلّ مستوى من المستويات، ممّا سُمّي بـ "الثورة" في مقاربة اللّغة، منذ نشر تلاميذ فرديناند دي سوسير دروسه المشهورة بـ"دروس في اللّسانيات العامّة".

ولا تتمّ الصّورة عنه إنْ لم نُشر إلى جوانب من علمه وأخلاقه العلميّة، جعلت منه بحقّ رجل حوار وتبادل، في كلّ ما يتعلّق في اختصاصه، وخارج اختصاصه. فلقد كان لكل رأي لديه أهميّة، ولكلّ اقتراح تقترحه عليه أذن صاغية، ممّا سهّل على طلبته والباحثين المسجّلين معه وزملائه الطّريقَ إليه، والحديث معه، بل ومخالفته الرّأي، وهو - والحقّ يقال - أمر لم يكن شائعًا بين أعلام المستشرقين قبله.

ولقد سمحت لي الظّروف أن أعيش ذلك عن كثب، عندما دعاني قسم الدّراسات العربيّة في الجامعة التي يدرّس بها، إلى إلقاء درس على الطلبة الذين يعدّون التبريز في اللغة والآداب العربيّة عن شعر محمود درويش في ديوانيْه "أرى ما أريد" و"أحد عشر كوكبًا". فكان كلّما سنحت الفرصة، وأفضنا في الحديث عن مسائل اللغة، ولا سيّما البلاغة والأدب يستمع أكثر ممّا يتكلّم، ولم يكن يمنعه فارق السنّ بيننا والمكانة والتجربة، أن يغمرني إطراءً لم يكن كلّه لياقة وتأدّبًا، وإنّما كان بعضه إقرارًا بأنّ من المعرفة ما قد يحصل للشخص ولا يحصل لغيره، وإن كان بها أوْلى للسّنّ، وبُعد التّجربة.

ذلك كان دأبه أيضًا مع زملائه ممّن كانوا طلبته، والمنتمين مثله إلى وحدة البحث التي سبقت الإشارة إليها.

ومن مظاهر ما ذكرنا حرصه على الاطّلاع على كلّ ما تُنتجه الجامعات المغربيّة، ولا سيما جامعة تونس والمغرب الأقصى، من أبحاث وكتب، في الميادين التي تهمّه. ويبرز ذلك جليًّا في قسم من أقسام منشوراته المتعلّق بتقديم الكتب تقديمًا نقديًا، في المجلاّت التي كانت، ولا تزال، في فرنسا مخصّصة لكلّ ما يتعلّق بالحضارة العربيّة الإسلامية، قديمها وحديثها، مثل مجلة (أرَابيكا Arabica)، و(سْتوديا إسلامكا Studia Islamica)، وفي المجلاّت التي تصدرها أقسام العربيّة في الجامعات الدّاخليّة.

ولا بدّ أن نذكر أنّ صلاته بالجامعة التّونسيّة والجامعة المغربيّة كانت صلات وثيقة، ترتّب عليها تعاون علمي، أفاد منه الجانبان، ومن مظاهر ذلك اتفاقيات التّعاون المبرمة بين جامعته وبعض الجامعات في البلدين المذكورين. فبالنسبة إلى تونس - على سبيل المثال - كانت العلاقة القديمة التي ربطته بالأستاذ عبد القادر المهيري هي السّبب الرئيس، لا سيّما والرّجلان مختصّان في المسائل اللغوية، وفي المشروع الذي كانا متفقيْن على أنّه المشروع الذي يتأكّد القيام به قبل أي مشروع سواه، وهو ما ذكرنا من وضع التراث النّحوي القديم، والتراث اللغوي عامّة، على محك ما جدّ من تطوّر عميق في التطورات والمناهج في موضوع اللّغة، منذ بداية القرن العشرين.

وهذه الاتفاقيات فتحت الباب أمام تعاون علميّ خصيب، تعدّدت مظاهره، من ذلك – مثلا - إشراك هذا الطّرف أو ذاك في المناقشات التي تعقد للأبحاث العلميّة، كالدّكتوراه، وعقد الملتقيات بين وحدات البحث هنا وهناك. نذكر - على سبيل المثال التّعاون الذي كان قائمًا بين وحدة بحث في جامعة منوبة، في " البلاغة والحجاج"، وكنت مديرها، وكان المنتمون إليها من المدرّسين في الجامعة من مختلف الأصناف، ووحدة بحث شبيهة بها في جامعة ليون، وكان يديرها يوسف ديشي (Joseph Dichy) وكريستيان بلانتان(Christian Plantin)، وكان هذا الأخير من أساطين الحجاج في أوروبا، كانت اللّقاءات بين الوحدتين متواصلة، تقع بالتّناوب، مرّة في تونس، ومرّة في ليون. وأذكر أننا أهدينا أعمال ملتقى في ليون إلى الأستاذ المهيري، وأهدينا أعمال الحلقة الموالية، التي تمت في تونس، إلى أندري رومان (André Roman)، كما كان الإخوة المغاربة يجمعون في الدّعوة بيننا وبين الأستاذ رومان. فلقد دُعي الأستاذ المهيري إلى مناقشات في المغرب لأطروحات كان رُومان مشرفًا عليها. كما تفضّل قسم العربية في فاس بدعوتنا - أنا والأستاذ أندري - إلى ملتقىً حول النصّ والقراءة، ولعلّ من أدقّ ما جاء في وصف مساره العلمي، ما قاله صديقه ميشال لوڤار (Michel le Guern) في تأبينه، ترجمةً عنه:

بإمكاننا أن نصف مساره العلميّ على أنّه انتقال من الأدب العربي إلى اللّسانيات، ولكنّنا لا نوفّي هكذا هذا المسار حقّه.

فأعمال أندري رومان الأدبيّة واللّسانية تشير إلى اهتمام قارّ لديه، هو البحث عن الجمال. فيمكن لمِنْوال نظريّ أن يكون فيه من الجمال ما نجد في قصيدة. فالبحث عن الجمال لإشراك النصّ في الإحساس به، تلك كانت وجهته التي لم يحِدْ عنها. ومن وقوعه بين عالمَيْن في التفكير، اجتمعا لديه، بفضل طفولته التونسيّة تضلّع بتفكير ترجح فيه كفّة الدّين على كفة الفلسفة، لا شك. كان هذا "الثنائي" العنيد مسكونًا بفكرة الوحدانيّة".

ولم يكن هذا الأستاذ شامخًا بعلمه فقط، فلقد كان سخاؤه وما يطبع علاقاته بالنّاس من عفويّة ودفء، من أهمّ خصاله. حدّثني بذلك أستاذي عبد القادر المهيري، الذي كانت مهامّه العلميّة والأكاديمية تدعوه إلى السّفر إلى فرنسا مرّات في السنة، وكان صديقه أندري رومان حريصًا على أن يلتقي به حيثما حلّ من فرنسا.

ولست أدري إن كان المقام يسمح لي بذكر بعض ما أفاء عليّ من هذا السّخاء، فلقد غمرني بلطفه وحسن استقباله وحرصه على أن تتمّ المدّة التي دُعيت فيها لثلاثة أشهر بجامعة ليون 2 على أحسن صورة. وفتح لي باب بيته، فعرفت السّيّدة "جاكلين" زوجته، وكانت في غاية اللطف والبشاشة، واستمرّ الأمر على هذه الوتيرة بعد انتهاء إقامتي، فكنت في كلّ رحلة إلى ليون أعرف أنني سأذهب إلى بيته، وأنعم بما توفّره السيّدة "جاكلين" من ترحاب ولطْف، وانتهى بنا المطاف إلى أن أصبحت من أصدقاء البيت، يدعوني إليه بدون أدنى حرج، قائلاً: " نأكل ما نجد"، وكان ما نجد سخاء وسفرة عامرة.

ولا يسعني أن أُنْهي هذا الحديث - أنا الذي فتح لي بيْته - دون أن أشير إلى حضور الطابع العربي، ولا سيّما المشرقي، في تأثيث بيته، فحضور لبنان وسوريا واضح في السجّاد والأغطية والتحف الخشبيّة المرصّعة بما يشبه العاج. وولعه باقتناء السّجّاد عشته معه مرّة، ونحن في فاس، فذهبنا إلى سوقها العجيب، ودخلنا بصحبة أخ مغربيّ من الكلية إلى حوانيت باعة السّجاد، واستغربت أنّه لا يبحث منها إلاّ عن أقدمها التي دبّت في أوصالها آثار الاستعمال الطويل، حتى أثار استغرابي إعجابه بسجّاد قديم، اخترم طول الاستعمال بعض صوفه، فصار ثقبًا، أو كالثقب، ولولا تشدّد البائع تشدّدًا أورثه الندم، لكان اشتراه بثمن باهظ في ذلك الوقت.

ودون أن أشير أخيرًا إلى ما قال في آخر لقاء لي به في بيته، كنّا - السيّدة "جاكلين" وهو وأنا - حول الطّاولة، وفجأة دقّ جرس هاتف البيت، فذهب، وبعد برهة رجع، وعندما اقترب منّا بقي واقفًا، وقال لي ما ترجمته: "يا فلان، عندما كنتُ أستاذًا مباشرًا في الجامعة، وكانت لي سلطات علمية وأكاديميّة مهمّة، كان رنين جرس الهاتف لا يتخلّف عنّا يومًا، والآن عندما يرنّ، فإنّ الأمر في تسع من عشر يتعلّق بشخص أخطأ الرّقم الذي يريده".

كان ذلك آخر عهدي به صحيحًا معافىً

مؤلفاته

I. الإسلاميات

يمكن أن نقول بشيء من الوثوق إنّ وجهة "أندري رومان" الأولى، في الاختصاص والبحث، كانت " الإسلاميات"، على ما تقتضيه السّنن الرّاسخة عند كبار المستشرقين، على اختلاف جنسياتهم، ولا سيّما الألمان منهم والإنجليز والفرنسيّين. ومن أبرز ما يميّز تلك السّنن الاهتداء إلى ما لم يُنشر من النّصوص المخطوطة، والتي لها قيمة في ذاتها، وفي علاقتها بالنّصوص السابقة، توسيعًا لدائرة الاختصاص، وفتحًا لمسالك جديدة في البحث، والإحاطة بما يعدّونه من خصوصيات علاقة أهل الإسلام بعقيدتهم وكتابهم، ومن ثمّ علاقتهم بخالقهم، ثمّ العمل على نشرها نشرًا علميًّا يضيء جوانب النصّ بما يستدعي النّاشر من جهود غيره من العلماء السّابقين أو المعاصرين له، حتّى تكون كلّ خطوة، وكلّ جملة، مغروسة في تربة ثريّة، لا ينتهي القارئ من قراءة ما يقرأ، إلاّ وتمثل كلّ الآراء والإسهامات، من خلال ما يملأ التحقيق والدّراسة من إحالات تكون في كثير من الأحيان أطول من نصّ المتن، وأكثر فائدة.

ولا يقتصر تنوير النّص على هذه المصاحبات النّقديّة والإحالات الغنيّة، بل لا بدّ من أن يضع الدارس الناشر في

حسبانه تسهيل الدّخول إلى أي منطقة من مناطق النصّ، وأحيانًا إلى أي مصطلح أو كلمة من كلماته بالفهارس المختلفة التي يكون حجمها أضعاف حجم النّص.

ولتكتمل حلقات الدّراسة، يقبل المهتمّ بالنّص ناشرًا أوّل له، أو مجرّد دارس، أن ينقله إلى لغته؛ ليطلع عليه من يهمهم النصّ، ولكنهم لا يستطيعون قراءته بلغته. وعمليّة الترجمة عمليّة مرهقة، لا سيّما إن كان النّص قديمًا، يتحرّك صاحبه في دائرة تحمّل اللّغة ما لا تحمله عند جريانها في غير ذلك المضمار، ويُعدّ النجاح في التجربة، والوصول بها إلى نقل النّص الأصل، نقلاً أمينًا، مع تأنّق في العبارة، واحترام المستوى اللغوي الذي يناسب في اللّغة المنقول إليها اللغة المنقول منها فوزًا أكبر.

وجهده البارز في هذا المضمار مؤلّف جامع، نترجم عنوانه عن الفرنسيّة كما يلي: "رؤية إنسانية لقيام الساعة: كتاب التوهّم للمحاسبي"، وقد جاء على هيأة علميّة نموذجيّة، تأخذ بأدق المعايير والسّنن المتبعة عند المستشرقين في مثل هذه الأعمال، وزاد في الحرص على هذه السّنن أنّه عملٌ نال به شهادة جامعيّة عليا، كما سبق أن أشرنا في ترجمته.

ولكتاب التوهّم في مسيرة أندري رومان العلميّة مكانة خاصة، فهو من الأعمال الأولى التي أنجزها، فقد سبق أن أنجز في بيروت سنة 1970 " فهرس موافقات كتاب التوهم" باستعمال الحاسوب، في صيغة لم تكن متطوّرة في ذلك الوقت، في

2254 صفحة، بالاشتراك مع جاك بيول (Jacques Piolle). وهذا الأستاذ مختصّ في الإعلامية، ومدرّس بجامعة پـو (Pau) وباعث مؤسسة متخصّصة في تناول العربيّة إعلاميًّا أو حاسوبيًّا، مقرّها في آكس آن بروفانس (Aix-en-Provence). وقد استمرّ التّعاون بينه وبين رومان إلى مطلع الثمانينات، وكان من نتائج التعاون بينهما بادارة ميشال آلاّر (Michel Allard) قيامهما بأوّل مشروع لرصيد العربية الأساس، وهو مشروع استطاعت بفضله جامعة القديس يوسف استعمال حاسوب وزارة الدّفاع اللبنانية، لتطوره وقوّة إمكاناته.

ونذكر - بهذه المناسبة - أنّ هذا العمل ستكون له نتائج مهمّة في المسار العلمي لرُومان، فسيتواصل - من ناحيّة - هذا الاهتمام بتطبيق الإعلامية على اللّغة العربية، بعد رجوعه من بيروت إلى فرنسا، والتحاقه بجامعة آكس ـ مارسي (Aix-Marseille)، كما سيتواصل التعاون مع جاك بيول.

فقد نشر سنة 1973 ب آكس عملاً عنوانه مترجمًا "نحو تناول آلي للنّصوص العربيّة"، في أكثر من أربعين صفحة، ويُعدّ من طلائع الأعمال في هذا المضمار. كما نشر ملحقًا لهذا العمل، سنة 1975، ونشره في الجامعة نفسها، وهو ضرْب من إحصاء للنتائج المترتبة على هذا القبيل من التناول للنّصوص، وعنوانها مترجمًا " الاستتباعات المنهجيّة والنتائج العمليّة لتطبيق الإعلامية على اللّغة العربية".

ثمّ إنّ البنية الثنائية /الزوجيّة - من ناحيّة ثانية - ستمثل حجر الأساس في تصوّره للغة، وفي بناء نسق نشوئها وتطوّرها، كما سنرى، ولا شك أنّها بنية كان للحاسوب دور مهمّ في إحلالها من تصوّراته المحلّ الذي ذكرنا.

ورغم أنّنا لم نطّلع على هذا الفهرس، فإننا واثقون من أنّ حصيلته هي التي شجعته على أن يختاره موضوعا للدكتوراه، وواثقون أيضًا من أنّ جزءاً من فهارس الكتاب الجامع الذي سنتحدّث بشيء من التفصيل عنه، أصله ذلك الفهرس.

ونتحدّث بالتفصيل، لا عن القضايا التي يحتويها الكتاب، فهذا مشغل يمكن أن نعُدّه ثانويًّا فيما أنجز الباحث رُومان طيلة حياته، وإنما نتحدّث عن الجديّة التي يمارس بها المستشرقون ما يتناولونه من مسائل. فمن مظاهر تلك الجديّة أنّ الكتاب عمل كامل كمالاً قلّ أن نلحظه في ما يُنجز في دوائرنا من أعمال شبيهة به. فهو، أوّلاً، تحقيق لنصّ، ثمّ تعريف بصاحبه، وبما أثارت حياته من اختلاف بين من ترجم له من القدماء، وذلك سواءٌ في ما يتعلّق بتحقيق اسمه ونسبة وعلاقاته، في الفترة الزمنية التي عاش فيها بمن عاصرهم، ممّن يختلفون عنه في النّحلة، وتحقيق ما تحدّثت عنه المصادر من وجوه الاختلاف بينه وبين أعلام معروفين، ثمّ وضع ما يسهّل على القارئ الدّخول إلى النّص، بوضع مختلف الفهارس، بما في ذلك فهارس الجذور اللغويّة المستعملة في الكتاب، ونقل لذلك

الكتاب إلى اللغة الفرنسيّة، حتى يستفيد منه من يهتمّ بالحضارة الإسلامية، ولكنّه لا يعرف العربيّة.

فأوّل ما ينبّه إليه الباحث اهتمام غيره بهذا العَلَم الذي يعود أصله إلى البصرة، وتوفّي في بغداد، عام 243هـ/ 857م.

فلقد ذكر أن المستشرق الألماني يوسف ڤـون آسْ (J.Van Ess) جمع آثاره جمعًا وافيًا، وحقق في نسبة بعض كتبه إليه ممّا نسبه بعض المترجمين إلى غيره، وأشاد بالجهد الذي بذله هذا المستشرق الذي أدّى خدمات إلى التراث العربي الإسلامي لم يقدّمها جلّ المسلمين والعرب من الدّارسين.

والاهتمام بكتاب التوهّم جاء في صورة استدراك على قائمة يـون آسْ بآثاره المخطوطة، فقد أضاف إليها رومان عنوانيْن:

- كتاب القصد والرّجوع إلى الله
- التوهّم بكشف الأحوال وشرح الأخلاق.

كمـا ذكـــر أنّ المـــستشرق الفرنسي الكبير لوي ماسينيون (L.Massignon) خصّه، في محاولته الوقوف على أصل معجم التّصوّف الاسلامي، بخمس عشرة صفحة متفاوتة، لكنها ناصعة عظيمة القيمة.

وفي فقرة مهمّة نترجمها عن مقدّمة الكتاب، يذكر الباحث سبب اهتمامه بهذا الصّوفي الذي كان صديقًا لبعض أعلام الصوفية في عصره، وفاعلاً في من جاء بعده بما خلف من آثار،

وتناقل النّاس من مناقب. وعن سبب اهتمامه من مؤلفاته بهذا الكتاب بعينه، يقول:" في النّصف الأوّل من القرن الثالث كان التساؤل عن الخالق، وعن علاقة المخلوق به، كانت تصاغ انطلاقًا من عدّة فرضيات ممكنة للمُسلم غير الشيعي، ونجد تلك الصّياغة عند أربعة مؤلفين اشتهروا شهرة خاصّة، ممّا أضفى على تلك الحقبة من حقب التفكير العربي الإسلامي بريقا لا يضاهي، وهم الكندي الفيلسوف، والأديب المعتزلي الجاحظ، وعالم الحديث ابن حنبل، والمحاسبي الصّوفي.

وبعدهم سيعود إلى هذا السّؤال المزدوج الأشعري (تـ330هـ)، ومعاصره الماتريدي (تـ 333 هـ/ 944م)

والسّنن التي واصلا السّير على نهجها، كان المحاسبي قبلهما قد أحياها، ملهمًا بذلك الأشعري، وكذلك الغزالي على وجه الخُصوص.

لقد كان هذا الكاتب العجيب صاحب أولى صفحات في الترجمة الذاتية وصلتنا من كاتب مسلم، وأول أثر يعرض مشاهد القيامة عرضًا مستقلاً نعرفه، تجرّأ [فيه] على أن يقول "أنا"، وأن ينشئ أثرًا في التوهّم. لكلّ هذه الأسباب اخْتيرَ المحاسبي، وقدّم لدراسة لسانية لرؤية بشرية لقيام السّاعة، وهي في الوقت نفسه رؤية الأنا أيضًا".

واللاّفت للنّظر حقًّا، ممّا لا مناص من ذكره، مُصاحبات الكتاب التي تسهّل على مستعمله قراءته، والإلمام بما فيه من

مسائل، وما قالت فيه القدماء، والمسائل الخلافية التي تنازع فيها مع معاصريه -كما قلنا- وعلى رأسهم أحمد بن حنبل 164هـ/ 780م ـ 241هـ/855م. ويمكن - بتقديم محتوياته - أن يتبيّن القارئ هذا الجهد الذي أشرنا إليه مرارًا، والذي نعده واسمًا رئيسًا لأعمال المستشرقين، مهما كان بعد ذلك رأينا فيما يقدّمون، وهذه خطة الكتاب مع بعض الملاحظات:

القسم الأوّل:

ص 11ـ 34 التعريف بالمؤلف، وبالموقف منه من خلال أغلب المصادر التي ورد ذكره فيها، وإبراز ما بينها من اتفاق واختلاف.

(وقد استعمل في الترجمة أربعة وعشرين مصْدرًا تمتدّ على سبعة قرون، من "أبي نصر السّرّاج"

صاحب كتاب " اللّمع في التّصوّف" المتوفّى سنة 376هـ / 988م، إلى "ابن العماد الحنبلي"

صاحب "شذرات الذهب في أخبار من ذهب"، المتوفّى سنة 1089هـ/ 1679)

ص 38 ـ 77 ترجمة النّص

ص 78ـ 155 النّص العربي، من نسخة " هونتينغتون"

القسم الثاني

ص157 ـ 159 توطئة لفهرس معجم الكتاب

ص 163 ـ 322 فهرس معجم الكتاب مرتبًا على الجذور

ص 325 ـ 358 ملاحق وفهارس (325ـ 327) فهرس بالـــجذور التي وردت فـــي كتاب التوهّم، ولم ترد في القرآن، (328 ـ 335) جذور موجودة في القرآن، غير موجودة في كتاب التّوهم، (341 ـ 358) فهارس الآيات الواردة في الكتاب، فهرس كلام اللّه في كتاب التوهّم، فهرس الأحاديث، فهرس الأعلام.

القسم الثالث

ص361 ـ 385 إحالات خاصّة بالمقدّمة، (ولا يمكن للقارئ ألاّ يكبر جهد الحرص على توسيع آفاق الكتاب، وآفاق البحث، باستدعاء ما يتصل به من بحوث بلغات شتى، حتّى إن عدد الصفحات المخصّص للتعاليق يتجاوز عدد صفحات متن المقدّمة نفسها، فهي موجودة من ص 11 إلى 34، والإحالات المتعلقة بها تمتد من 361 إلى 385. فليس من المتن مسألة – سواء تعلقت بالترجمة للمؤلف، أو مسألة من المسائل المتعلقة بالفرق بين الفرق – لم تنل نصيبها من التعليق والاستضاءة بآراء كبار المختصّين، أو بمقابلة النّصوص القديمة، واستخراج ما يجب استخراجه منها؛ لتغليب رأي أو دحض رأي. والمؤلف

رُمان يقرأ بلغات عديدة، ويستدعي المواقف أحيانًا بتلك اللغات، ويسكت عن ترجمتها، وهذا ممّا يقلّل الاستفادة منها، وإن كان مضمونها موجودًا بصفة عامّة في نصّ المسألة التي استحقت التعليق، ومع ذلك نأسف لغياب الترجمة، لأنّ الشاهد قد يكون فقرة كاملة: فبين صفحتي 13 ـ 14 فقرة من بِـون آسْ بالألمانية، وفي ص19 من التعريف نصف صفحة بالإنجليزية، والإحالة عدد 53 جاءت بالفارسيّة، وتغطى أكثر من نصف صفحة 373).

ص386 ملحوظات تهم الترجمة إلى الفرنسيّة

ص 388 ـ 414 ملحوظات متعلقة بالنّص العربي

ص 415 ـ 440 ملحوظات متعلقة بالدّليل

ص 443 ـ 453 المصادر والمراجع.

ويتّصل بهذا الجهد البارز مقالان، أشار إليهما الباحث في الكتاب الذي كنّا نقدّم صورة عنه: أحدهما يقع في مائة صفحة تقريبًا، وهو في لغة الكتاب، ومختلف الصّور والأساليب التي صيغ وفقها، وما يترتب عن اختيارات المؤلف في اللغة من مظاهر أسلوبيّة. ويبدو أنّ الباحث قرّر ألاّ يكون في الكتاب، حتى لا يثقل كاهله وكاهل القارئ، وربّما النّاشر، فبعث به إلى مجلة الدّراسات الشرقية (B.E.O) في دمشق فنُشر فيها، عام 1979، المجلّد 31، من صفحة 167 إلى صفحة 267. وعنوانه

كما نُترجمه: "دراسة أسلوبيّة لكتاب التوهّم، وهو بحث تفصيليّ في كلّ ظاهرة من ظواهر الكتابة التي نجد لها ذكرًا في مؤلفات البلاغة ومعاجمها، كما نجد بعضها الآخر في لبوس جديد، أضفته عليه الدّراسات الأسلوبيّة في مؤلفاتها الأولى التي تناسب الفترة التي كتب فيها المؤلف دراسته.

وتنطلق الدّراسة - التي تعتمد الشاهد من النّص أكثر ممّا تعتمد تحليله وبيان فعله الأدبيّ - من البسملة وافتتاح النصّ، ثمّ من أصغر المظاهر عملاً، كمسائل القافية والوقف، وصولاً إلى الخطاب وما فيه من صور ومقاطع صور، كما يسمّيها، وتأتي الخاتمة اقتباسًا من عنوان من عناوين أمبرتو إيكو، وهو "الأثر المفتوح وجمهوره" إذن انبنت هذه الدّراسة على مسار ينطلق من الصّوتم، إلى الجملة، فالخطاب، ولكن دون تحليل عميق مصاحب إلاّ في بعض المواطن فقط.

والثاني أهمّ من الأوّل بكثير - على صغر حجمه - نشره أيضا في المجلة المذكورة آنفًا بالمجلد 27، دمشق، 1975 من صفحة 7 إلى صفحة 18، وعنوانه مترجمًا: " التّعبير عن الأنا في لغة الوحي العربيّة"

وواضح من العنوان أنّ الباحث يسعى إلى البحث عن تجليات مفهوم أصبح في الثقافة الفلسفيّة الغربيّة مفهومًا أساسيًا بارزًا، هو مفهوم الشخصيّة التي يصبح معترفًا بمقوّماتها وبوجودها وجودًا مستقلاً، بما يستلزم ذلك من اعتراف

بحقوقها، باعتبارها فردًا، وإن كانت تعيش مجتمعة مع غيرها، ومن إلزامها بواجبات تؤديّها، وبمسؤوليات فرديّة تقع عليها، ولا يمكن بحال أن تراوغها أو تفلت منها.

وبحثه هذا جمّاع ما انتهى إليه البحث عند علماء الغرب المختصّين في الإسلاميّات من تصوّر عن علاقة الإنسان بخالقه، وبالنّص المؤسّس لحضارته، والمسيطر على أزمنتها كلّها.

"فلا يكون للإنسان زمانه إن ارتبط بالقرآن الأزلي"، والإنسان الفاني الخاضع لإرادة اللّـه الذي لا تغيّر ولا تبدّل في هذا العالم المغلق الذي أنزله اللّـه إليه، "لا يتسنّى له أن يصنع تاريخه".

واللّغة التي يتكلّم، وهي لغة مقدّسة قوانينها الثابتة التي صيغت في أوّل تأليف، سمّي " الكتاب"، وسمّي كذلك لأنّه يبحث في لغة نزل بها القرآن، فتخلّصت من كلّ قوانين التاريخ والتطوّر، في مستوى الأبنية العقلية، لا في مستوى الوقائع، هي اللغة التي تبني تفكيره، وتصوغه بطريقة لا دخل له فيها، ولا سيطرة عليها.

ومن ثمّ، لا يمتلك أحدٌ إرادة الفعل، وإن جاء بالحدث الجديد البديع، ولذلك أطلقوا رأي الكاتب على الشّعراء الذين حاولوا الخروج في الشّعر على نهج القدماء "المحْدَثين"، لا "المُحْدِثين" لأنّ المحدِث الوحيد هو اللّـه. ولذلك لا نجد في القرآن اعترافًا بأوضاع محايدة، يكشف فيها قلب الإنسان عن

نشاطه الخاصّ، وميله إلى اختيارات لا تعدو أن تكون اختيارات بشريّة، لا علاقة لها بالمطلقات.

وكذلك رأى رومان في جهد الخليل بن أحمد، الذي وضع الدّوائر التي تعرض البحور في صيغة مثالية قلّ أن يطابقها تحيين تلك الأقيسة، ومع ذلك سمّى ما يطرأ على التحيين - وهو واقع الأمر لا صورته النظرية - زحافات وعللاً، باعتبار أن الدّوائر هي صورة الكمال وصورة المطلق، والخروج عنها ليس إلا نقصًا يعتور ذلك الكمال، وهو صورة لكمال الخالق.

وعلى هذا النّحو تصبح كلّ محاولة لحضور الأنا، وخروجه من هذا الغياب المطلق، واستلاب إرادته، انخراطًا في الزّمن التاريخيّ الذي فيه للإنسان فسحة التعبير عن ذاته وإرادته وقدرته على الفعل والتّغيير، ومن هنا جاء إعجاب "رومان" بالمحاسبي، لأنّه - في رأيه - أوّل من أقدم على كتابة سيرة ذاتية، بقطع النّظر عن حجمها وإيفائها بمحدّدات السّيرة الذاتية، كما نتحدّث عنها اليوم. وهذه "الأنا" هي التي سمحت له بقطع البرزخ الفاصل بين عالم الغيب وعالم الشهادة، عدّتها في ذلك الخيال وبناء الأمثلة والتصوّرات عن القيامة، انطلاقًا من المادّة المتوافرة عنها في القرآن وتفاسيره الأولى.

II. الترجمة

التّرجمة حاضرة حضورًا مسترسلاً عند كلّ من يدرس لغة ثانية تختلف عن لغته. ويتفق الدّارسون المختصّون في اكتساب اللّغة واكتساب اللّغة، الثانية على وجه الخصوص، أن تلك العمليّة تتمّ دائمًا - وبصورة لا واعية - بعمليّة مقارنة مستمرّة ـ أي ترجمة ـ بين ما يكتسب تعلّمًا، وما قد اكُتسِب بالنشأة. ولم يقصروا الأمر على ما يسمّى ـ ثنائية لغويّة ـ (bilinguisme)، وإنّما قالوا بذلك في حال وجود مستويين من نفس اللغة (diglossie). وعلى قدر الفجوة بين المستويين تنشط عملية الترجمة عند اكتساب المستوى "الرّسمي".

إلاّ أنّ الترجمة التي أَطلق عليها هذا الاسم، وكرّسته مؤسسات مختلفة، على رأسها مؤسسات التّعليم، بهذا الاسم هي التي تتمّ بين لغتين مختلفتين. وفي هذه الحال بيّنت الأبحاث والتجارب أنّ الرّجوع إلى اللغة الأمّ أسهل على المترجم من الاغتراب والخروج إلى اللّغة التي اكتُسبت بالتّعلم أساسًا، كما بيّنتْ أنّ الترجمة بين لغتين من العائلة نفسها أهون من التّرجمة بين لغتين من عائلتين مختلفتين، كما هو الشأن في حالة المستشرقين المختصين في اللغة والأدب والحضارة العربيّة.

والترجمة في عالم الاستشراق نشاط أساس، فليْس من بينهم مختصّ في لسان لم يترجم منه إلى لغته. وأغلب الترجمة تكون من اللغة الثانية التي اختصّ فيها إلى لغته الأمّ، وقلّما

نصادف العكس، حتى إنّهم أوجدوا في التعليم تمرينين لسبر قدرة المترجم في الاتجاهين. وكثيرًا ما يكون تقويم القدرة في صالح الرّجوع من لغة أخرى إلى اللّغة الأم.

وتختلف النّصوص التي يترجمونها في المستوى اللغوي الّذي قُدّت منه، وفي أجناسها الأدبيّة وعصورها التاريخيّة. فنجد من الفرنسيّين المختصين في العربيّة – مثلاً – من ترجم القرآن وأمهات الأدب والفكر في القديم، كالمقامات، وكتب الرحالة، والفقه، والتشريع، والشعر، والقصّ بأنواعه...

ولا يختلف حال "أندري رومان" عن هذه الحال التي وصفنا، بل لعلّه مارس منها مستويات لغايات قد لا نقف على بعضها عند غيره.

ذكرنا أنّه ترجم كتاب "التوهّم" للمحاسبي، وهو – بما عُرف عن صاحبه وبموضوعه وغائم عبارته – من أشدّ النّصوص استعصاءً على النّقل والهجرة من مواطن ألفة إلى مواطن غربة. فصاحب النصّ من أعلام التّصوّف ومتقدّميهم، والكتاب في "خطرات القلوب"، والقدرة على تصوّر أحوال لم يسبق للمخاطب في الكتاب بفعل الأمر "توهّم" أن عاشها وجهد أن يقطع بالتصور المسافة الهائلة الفاصلة بين عالم الشهادة وعالم الغيب في يوم مشهود، هو يوم القيامة، يوم يجيء فيه "ربّك والملَك صفًا صفًا"، إنّه كتاب يطلب من مُخاطِبه على حدّ عبارة الكاتب الفرنسي " هنري دي منترلان" (Henri de Montherlant)

"أن يرمي بعقله خارج حياته"، بما له من قدرة على تصوّر ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، إلاّ حكاية باللّغة، وما تقدر اللّغة أن تبنيه في أوهامنا وأخيلتنا.

ولقد أجمعت الأوساط العالمة على مستوى هذه الترجمة الرّفيع حتى عدّها بعضهم نموذجًا يحتذى بما لصاحبها من معرفة باللغتين، وبما وطّن عليه النفس أيضًا من بحث عن كلّ ما ترجم قبله في مثل هذه الدائرة، وما وضع من معاجم مختصّة في فروع اختصاص الحضارة العربية الإسلامية، وما تزخر به لمكتبة الاستشراق من ترجمات للقرآن الكريم...

ولكن يبقى أهمّ ما أنجز في هذا المضمار هو ترجماته الأدبيّة، وفي مقدّمتها ترجمة الشعر القديم، وشعر المولّدين على وجه الخُصُوص، فلقد عاش تجربة "عشق" لشعر بشّار بن برد، كانت نتيجتها كتابًا في أكثر من أربعمائة صفحة، موضوعه شعر الشاعر في عبدة، وعنوانه مترجمًا: "بشار وتجربته في العشق والمحبّة: شعره في عبدة، النّص العربي والترجمة والمعجم" 487 صفحة، سلسلة أبحاث، بيروت 1972، وسنرى ذلك في القسم المخصّص لنشاطه الأدبيّ. وقد أشاد قراء الكتاب بقدرته على "مراوغة صعوبات الشعر وصبّها في قوالب فرنسيّة يضاهي جمالها جمال الصّورة في النّص الأصل، وربّما احتفظ المترجم بتوقيع البيت ووقْعه، وهذه القدرة ما كنّا لنشير إليها لو لم يكن ما تُرجم من شعر ديوان بشار 1195 بيت من جملة 6628 بيت

من تحقيق الشيخ محمّد الطّاهر بن عاشور (ط، تونس 1950)، عدا ما ترجمه من كتب أخبار الأدب من قصائد ومقطوعات من "الأغاني" للأصْبهاني، و"زهر الآداب" للحصري.

وربّما أهمّ من ذلك كلّه الكتاب الذي نشره عام 1981، عند Klincksieck، بعنوان: "نظرية الترجمة الأدبية وممارستها من الفرنسية إلى العربية"، لأنّه تمرين قلّ أنْ ركب صعوباته المستشرقون، فمن شاءت الظروف أن عرفنا كتبهم في الترجمة، وقد كانوا أعلامًا فيها، كنا ونحن طلبة نقف مبهورين بما أتوا من قدرة عجيبة على صياغة أدق المعاني وأبعدها، في لغة راقية، هي "خير وأبقى" من كلّ من تحدّثه نفسه بالبحث عن صياغة أخرى لها. وباع الأستاذ شاربلاّ (Charles Pellat) في هذا المضمار يعرفه القاصي والدّاني من المتقدّمين لمناظرة التبريز في اللغة والآداب العربية، أو الذين قرؤوا ترجمة له، لكتاب من كتب الجاحظ على سبيل المثال. وكذلك الشأن عند غيرهم ممّن ترجموا نصوص الفكر الإسلامي، وآثارًا أدبيّة، كما هي الحال في ترجمة الأستاذين جمال الدّين بن الشيخ وأندري ميكال (André Miquel) لألف ليلة وليلة، وقد نشرت الترجمة أهمّ سلسلة أدبيّة هي لابلييادْ (La Pléiade).

رغم ما ذكرنا لا نعرف لهم ترجمة من الفرنسيّة إلى العربيّة إلاّ ما ندر، وإذا تجرّأ أحدهم، فإنّ عمله لا يزيد على محاولات معدودة، نحن نعرف منها أقّل من القليل. أمّا الأستاذ رومان،

فقد اختار عن وعي وثقة في سيطرته على العربيّة سيطرة من توغّل في أسرارها، وانتهى سعيه إلى أدق دقائقها، ووجه التّحدي الأوّل الذي أراد رفعه هو اختياره نصوصًا أدبيّة، ولا يخفى كما تؤكد ذلك الدّراسات المنجرة في نظريّات الترجمة - أنّها أصعب مراسًا من الترجمة المسمّاة "فنية"، أو ترجمة الاختصاص، لأنّ سبل التعبير عن المعنى ليست في الغالب سبلاً مباشرة، وما قد يبدو معنى مجرّدًا يُخفي وراءه دلالة ثانية، وقد تتحوّل في بعض النّصوص كنصوص - الشعر مثلاً إلى تدْلال، وهذا يتطلب من المترجم الانتباه إلى طبقات المعنى، ثمّ إيجاد صياغة في اللغة المنقول إليها إنْ لم تفِ بكل المعنى، فهي تأتي على أهمّ جزء منه.

والتحدّي الثاني تنويعه النّصوص، بحيث لا نقف في الخمسة وخمسين نصًّا المختارة على كاتب مرّتين، إلاّ الشاعر أراغون (Aragon) و الكاتب مونتسكيو (Montesquieu). وهو ما يوسّع من دائرة الكتابة، وينوّع أشكالها واختلاف أساليبها. وليس من الهيّن الدّخول في دقائق هذه الأساليب، حتى وإن كانت الفرنسيّة اللغة الأمّ. فكيف إذا أُريدَ نقلها إلى لغة ثانية من عائلة لغوية مختلفة؟!

والتحدّي الثالث - وهو من العادات الحسنة في تعليم العربية في فرنسا، وليتنا نعمل به في أوطاننا - هو إلزام المترجم بشكل نصّه العربيّ شكلاً كاملاً، لا يترك شاردة ولا واردة. وكلّ

عارف معرفة جديدة بالفرنسية، ممّن لغتهم العربيّة اختصاصًا في أعلى المراتب، لا يسعه إلاّ أن يثمّن هذا الجهد، و أن يُكبر في المترجم حرصه على اللغة العربية في تراكيبها وأساليبها وطريقتها في ضبط كلّ ما يلزم من الحركات، لا حركات الإعراب فحسب، وإنّما كلّ ما يُسهم في جعل الكلمات والجمل والفقرات نسيجًا مترابطًا موصولاً وصلاً يراعي نواميس اللّغة التي ضاع أغلبها عن أغلب العرب، وإن كانوا مختصّين فيها.

ولم يفت المترجم أن يصدّر كتابه بعتبة (ص ص 11ـ 20) ذكر فيها شيئًا من القضايا النظريّة المتعلقة بالترجمة، مستعينًا في بلورتها بمراجع أساسيّة يعرفها المتصدّون لمثل هذا التمرين. وسنعرض أهمّ الأفكار التي جاءت فيها، مع الاشارة إلى بعض المراجع التي يعتمدها. وجعل للعتبة عتبة بيّن فيها الدّافع على كتابة هذا الكتاب، والقيام بهذا التمرين المُضني. ويذكر في مقدّمة تلك الدّوافع ميْله إلى هذا التمرين، ثمّ الحاجة الناجمة عــن وجــوده نفسه، وهو طالبٌ للأستاذ روجي هادي إدريس (R.H.IDRIS)، وهو المؤرّخ المهتمّ بتاريخ الدّول في أفريقيّة، أو ما يسمّيه بلاد البربر الشرقية (تونس)، ثمّ أستاذ كُلّف بأن يُعلّم طلبته أصول هذه الصّناعة. ولكن الدّافع الأكبر كان تشجيع أحد زملائه من الأساتذة له على تأليف هذا الكتاب، مشيرًا إلى جهد أستاذين من أساتذة جامعة القديّس يوسف في مراجعة المخطوط مراجعة دقيقة، وهما نقولا سعادة، وأهْيف سنّو.

مؤكدًا على أنّه مهما كان المستوى اللّغوي الذي اقتضاه النّص المترجم، فإنّه حرص الحرص كلّه أن تكون الترجمة أدبية لنصوص أدبيّة كلّها، إذا استثنيت منها نصًّا أو نصّين.

ينطلق المترجم من فكرة أساسية تعدّ التّرجمة حلولاً في شكل جديد أو انتقالاً من سنحة إلى سنحة أخرى، ويتّصل بهذا مفهوم الرّحلة والاغتراب. وعليه ينجم سؤال أساس بعد كلّ ترجمة، يتعلّق بالتساؤل عمّا إذا كانت ترجمة نصّ فرنسي إلى العربية تحتفظ للقارئ - وفي صيغ لغته - ما كان كتبه الفرنسي لمن لغتهم الفرنسيّة، وأمام استحالة أن يعيد المترجم أشكال لغة المنطلق على ما هي عليه، يكون مجبرًا على محاولة إيجاد الصّيغ والأشكال التي تناسب أنواعها في لغة الوصول.

كما أنّه مجبر على أن يتبيّن تبيّنًا مضبوطًا الرّسالة التي يترجم دون أن يحتويها ويعطيها جنسيّة لغة الوصول، وذلك بأن يُحلّ مراجعهُ الخاصة به محلّ مراجع الكاتب. [يشير في الاحالة 2، ص، 14، إلى أنّ الترجمة تجاوزت الثنائية التي كان يعيدها الأساتذة على مسامع طُلابهم في الاختيار بين " الجميلة الخائنة" و"الوفيّة التي لا جمال لها"، تناسب الأولى الترجمة التي تحترم المحتوى، وتجري في الصّياغة جريانًا حرًّا، وتناسب الثانية ما نسمّيــه بالترجمـة الحرفية. والأمر أصبح لا هذه ولا تلك، وإنّما نقْـل مضبوط ما أمكن الضّبط للعلاقة الدقيقة بين شكل النصّ الأصل ومحتواه. ورد هذا الكلام في إساهم جورج مونان

(G Mounin) في أعمال المؤتمر الثالث للفدرالية العالميّة للمترجمين، مطابع برغامون (Pergamon Press) 1963، بعنوان "مفهوم الكيف في الترجمة الأدبيّة: ص ص 57 ـ 50 من النشرة المذكورة، ويُعدّ "مونان" من أهم المنظّرين لمسائل الترجمة في فرنسا، وكتابه المشهور" Les problèmes théoriques de la traduction" (مشكلات الترجمة النظريّة) باريس، 1963، تواترَ على أجيال من الطلبة في الجامعات الفرنسيّة، أو التي لغتها الثانية الفرنسيّة"].

بمعنى أنّ عليه أن يحاول استعادة الرّسالة التي يترجم دون تبديل هويتها، وذلك بالحفاظ على مرجعيّاتها الخاصّة بها، لا أن يعطيها مرجعيّاته. وهذا ما يجعل كلّ ترجمة عملية متعدّدة الأبعاد، ولكنّها تبقى بالأساس عملية لغويّة، تقوم على تطبيق لسان على لسان.

وإذْ لا نصادف معجمًا منظمًا تنظيم معجم آخر، فإنّ العلاقة بين ألفاظ المجموعتين المكوّنتين من معجم لغة المنطق ومعجم لغة الوصول، لا تكون علاقة مطابقة.

ومع ذلك، فإنّ العلاقة بين المجموعات الصّغرى المندرجة في الحقول المعنويّة التي تستقطبُها الألفاظ المشار إليها، يمكن اعتبارها تطبيقًا يكون فيه اللفظ في لغة الوصول صورة لعنصر على الأقل من لغة المنطلق.

ولكن، رغم ذلك، تبقى هذه الحقول المعنويّة مختلفة من

لغة إلى أخرى، بحكم تقطيعها لحقيقة - هي نفسها متعدّدة - تقطيعًا مختلفًا.

وليست هذه الاختلافات سدًّا يمنع التّداخل واللقاء. فمع أنّ كلّ لغة تقسّم حقل المعجم بطريقتها الخاصة، فإن هناك توجد ميادين تقوم فيها الطبيعة نفسها برسم حدود التقطيع اللّغوي، ومن ثمّ تلتقي اللّغات، "فالنّاس - كلّ النّاس - يشتركون في كونهم أناسًا، مع ما يصاحب ذلك من وجوه شبه فيزيولوجية ونفسيّة".

ثمّ يسترسل المؤلف في ضبط وسائل إنجاز هذه المطابقة، مشيرًا إلى خصائص اللغتين المعنيتين في الكتاب، وما بينهما من وجوه اتفاق ووجوه اختلاف، معوّلاً في القيام بمهمته في الكتاب على معارفه باللّغتين، وتجربته الطويلة في الترجمة، التي أوقفته على جلّ الإشكاليات التي تواجه المترجم بين هاتين اللغتين، والطريقة التي وقع تجاوزها بها.

ولا يقتصر جُهد التّرجمة في مُنجزه العلميّ على ما ذكرنا، فللمؤلف بحث مهمّ يلفت النّظر بالعنوان الذي اختاره له، وهو "الترجمة والتعلق بالأوهام"، إشارة إلى الأوهام وأهوال الولادة المخيفة التي قد تعاني التّشويه والمسخ. ولا يخفى على القارئ ما يثير العنوان من الاستغراب، لا سيّما لدى رجل كانت الترجمة أسًّا متينًا في أغلب مشاريعه العلميّة، لأنّه لا يكتفي بالدّعوة إلى الحيطة والحذر اللازمين في كلّ عملية نقل لما بين

عوالم اللغتين المنقول منها والمنقول إليها، من تباين في صياغة الواقع وبناء الرّؤى، وإنّما إلى التشكيك في امكانية الالتقاء والتبادل والأخذ والعطاء، هذا في ظاهر الأمر على الأقلّ.

ولكنّنا سرعان ما ندرك ما دفعه إلى هذا "التشاؤم" وسوء الظنّ، ذلك أنّه مقال في ترجمة المصطلحات والمفاهيم التي لا يمكن - من وجهة نظره - عزلها عن شجرة النّسب المرتبطة بها، والتي لا يمكن عزلها عن شجرة النّسب المرتبطة بها، والتي يمثل كلّ مفهوم فننا من الأفنان، تربطه ببقيّة مكوّنات الشجرة علاقة وطيدة، بها ينخرط في التصوّرات والأنساق التي تؤسس المعرفة أو النظرية التي يمثل المفهوم فرعًا من تفرّعاتها، ومكوّنًا ذرّيًا من مكوّناتها.

وليس غريبًا أن نُصادف ضمن جهوده في التّرجمة هذا المقال الذي يردّنا إلى أصل اختصاص الرّجل، وهو اللغويّات واللّسانيات.

والمقال جولة في المصطلحات النّحوية العربيّة التي نُقلت إلى الفرنسيّة، عندما احتاج المستشرقون إلى إيجاد المُوافقات بين المصطلح في بيئته الأصل الفكريّة واللّغويّة، وبين المصطلح الجاري في لغتهم الأصل، وفي النّظام النّحوي كما ضبطه أهلها، وما يربط بين مكوّناته كلّها من علاقات، ويسوسه من نواميس.

وقراءة المقال ليست هينة لأنّها في مسائل دقيقة، لا تُسلّم قيادها إلاّ لقلة من القرّاء العارفين بمكوّنات النّظامين النحويْين

العربي والفرنسي، وقلّ من له هذه المعرفة، حتّى من المختصّين اختصاصا عميقًا في نحو من هذه الأنحاء.

والمقال من مستوى علمي راق من وجوه عديدة، أبرزها ثقافة الباحث اللغويّة، فهو ملمّ بالقديم، سواء في البيئة الفرنسيّة والبيئة العربية، إلمامًا يدعو إلى الإعجاب، يبرز ذلك خاصّة في الهوامش التي تأخذ من الصفحة أكثر ممّا يأخذه المتن أحيانًا، والرّجل عارف بكلّ دقيقة تتعلّق بالتأليف في النّحو العربي باللّغات الأجنبيّة التي يتقنها، وله في هذا المجال تأريخ وافٍ، سنعرض خطوطه الكبرى في القسم المخصص لاهتماماته اللّغويّة.

وكما أنّه ملمّ بكلّ الجهود التي قام بها العرب وغير العرب في قراءة النّحو العربي، بما استقرّ من مفاهيم ونظريات وقراءات رشحت عن اللّسانيات الحديثة، في كلّ مكوّنات نظام اللّغة.

وبناء على تلك الثقافة الجامعة بيّنَ أنّ كلّ ما اقترح من موافقات، كان على سبيل التّقريب، إن لم يكن خطًا وسوء تقدير أو مسخًا وإنزالاً للشيء في غير محيطه.

ولتأكيد ما قال - وفيه نقد صارم أحيانًا - بدأ في استعراض الأمور من بداياتها، منطلقًا من الترجمات التي اقترحت لأقسام الكلام، كما وردت في أمهات النّحو العربي - وهي الاسم والفعل والحرف - مستعرضًا كلّ قسم على حدة، مبينًا أنّ وراء ما يبدو ترجمة معقولة لكلّ قسم من هذه الأقسام، يصبح متى

دخلنا في تفاصيل ما يندرج ضمن كلّ قسم، ترجمته على التقريب، إذْ لا تتطابق حقول المفاهيم فيها إلاّ بنسب ضئيلة أحيانًا. مثال ذلك أنّه يبيّن أنّ ترجمة "اسم الفاعل" بـ "Participe" ترجمة خاطئة لكلّ من عرف الأسباب التي جعلت النحاة في اللّغتين يختارون هذه التسمية لما سمّوا في نطاق شجرة المفاهيم التي تبني النّظام.

كما أن غياب مفهوم "modus" في التقاليد النحويّة العربية مثله مثل غياب "Sujet "، على ما اقتُرح لهما من توجهات لا يقبلها المؤلف (ضرْب، صيغة الفعل بالنسبة إلى modus، وفاعل بالنسبة لـ Sujet)، يمكن أن ترجع إلى نفس العوامل التي وقفت في الحضارة العربية الإسلامية أمام التعبير المستقل عن "الأنا".

ويقترح اسم النّوع ترجمة، على سبيل التّقريب.

وانتقل بعد أقسام الكلام إلى التركيب، وتوسيع في تعريف الجملة باعتبارها، وحدة الكلام الأساسية والدّنيا، وبيّن ما بين النظامين من فروق في تقدير مكوّناتهَا، وأنّ الفهم الحقيقي لفهم دور كلّ عنصر من عناصرها لا يتمّ إلاّ من داخل النظام الذي تنتسب إليه.

وقد بنى "رومان" هذا المقال وما فيه من اعتبارات، على مقدّمة نظريّة هامّة، نسُوق هنا أهمّ ما جاء فيها من أفكار، ترجمة وتصرّفًا، ونعود إلى بعض ما فيها في القسم المخصّص لأهم جهوده، وهي جهوده اللّغويّة.

فهو يرى أنّ الوحدات التي اكتشفها الإنسان على مرّ الزّمن، والوحدات التي سوّاها هو نفسه، وقعت تسميتها دفعة واحدة من قبله بنفس الطريقة الثنائية التي هي النهج الأوّل الذي وجده مفتوحًا أمامه، وأتبعه ضرورة لينشئ العالم، ويقوله.

ووحدات التّسمية هذه انبنت في اللغات إمّا في غياب كلّ علاقة بالزمن، باعتبارها أشياء "res"، مثال ذلك المصدر، وإمّا بعلاقة ما بالزّمن، مظهرًا أو زمنًا باعتبارها "modus" نمطًا أو وجهًا كالأفعال مثلاً.

كلّ وحدة من وحدات التّسمية التي تسمّى الأشياء "res"، وهي:

ـ إما "اسم علم" أي اسم نسب.

ـ وإمّا "اسم مشترك" يُطلق على وحدة مجرّدة نوعيّة تقوم مقام وحدات طبيعية أو اصطناعية كثيرة، أو تطلق على اسم صناعي أو على مفهوم.

- تندرج أسماء الأعلام في شجرات أنساب.

وتندرج الأسماء المشتركة (أسماء الأشياء) في حقول معنوية فيها، تكتسب قيمتها بالمواجهة بينها وبين الأسماء المحيطة بها، المندرجة في نفس الحيز الدلالي معهما.

- وتندرج الأسماء الصناعية عادة في مستويات ورسوم.
- وتندرج المفاهيم في مشجرات مفهومية.

وأسماء اللغات التي تسمّى الوحدات الطبيعية المشتركة نفسها، تبدو لأوّل وهلة متكافئة، ومن ثم يَحلّ بعضها محلّ بعْض، كأسماء الريح والقمر، على سبيل المثال.

لكن سرعان ما تتعلّق بهذه الأسماء ذاكرة استعمالاتها، فتصبح أسماء سياقيّة. وهكذا ستختلف من لغة إلى أخرى، فالقمر في العربية كوكب مذكر، وهو كوكب يختلف عن القمر في الفرنسيّة.

• والأسماء التي تطلق على الوحدات الطبيعية الخاصّة ببعض الجهات، لا يمكن أن توجد في لغات الجهات الأخرى إلاّ على وجه الاقتراض اللّغوي أو المجاز.

كذلك الأسماء الصّناعية الخاصة ببعض الحضارات، فإنّها - إن لم تتبنّها حضارات أخرى - تسمى أيضًا عن طريق الاقتراض أو المجاز: أسماء السّلاح والملابس...

وإذ تبنّتها، يمكن أن تكون الأسماء الصّناعية وأسماء المفاهيم واحدة، أقرّتها المجموعة العالميّة، كأسماء الموادّ أو المنتوجات الكيميائية، وإلاّ تُرجمت إلى كلّ لغة، كالهاتف والمعلوماتية في العربية. أمّا حال العلوم الإنسانية، فخاصّة ذلك أنّها تتّصل بثقافة الأمم، أي بالنّصوص المؤسّسة لتلك الثقافة.

نعترف أنه لا توجد أسطورة واحدة في الثقافة العربيّة، وذلك لا شك فيه، لأن المعرفة في العالم الغربي معرفة متصلة بشجرة الأنساب والأساطير، لا تقبل الاقتراض. في المقابل،

بقي علم الكلام في حدود دار الإسلام، إذْ لا يمكن فصله عن العلاقة الفريدة بين اللغة والربّ في الاسلام.

والترجمات الفرنسية المقترحة لذلك لا تشفي الغليل. وبسبب العلاقة التي يعيشها العرب مع لغتهم، فإنّ مفهوم langue mère الذي يقتضي تنويعًا يجهله التقْليد العربي الذي لا يعترف في الغالب الأعمّ إلاّ باللّغة العربية، يبقى في صورته المنقولة " لغة أم" لفْظًا مستوردًا، لا يمكن فهمه خارج النّصوص المحيطة به.

وإذا كانت الفلسفة على ما يبدو كونية، فإنّ مردّ ذلك أنّها لا تقوم على النّصوص المؤسسة، ولكن تقوم - في استقلال تام عنها - على عقل الإنسان، ومع ذلك لم يترجم اسمها الإغريقي، وإنّما اقْتُرِض.

ولذلك، فإنّ كلّ ما في هذه العلوم من مصطلحات ومفاهيم لا يتسنّى فهمها فهمًا لا يخلّ بأسس النّظام، إلاّ أن تُعدّ في شجرة العلم التي أنبتتها، لأنّ العلم لا ينبني على تراكم جزئيات منفصلة، وإنّما يقوم على مناويل وأنساق يُؤدي كلّ مكوّن فيها وظيفته في صلته ببقيّة المكوّنات.

هكذا هو شأن النّحو - على سبيل المثال - وهذا هو السّبب فيما لاحظه الباحث في ترجمة مفاهيمه إلى لغات أخرى، من وجوه مسخ وغلط وبناء على التقريب في أحسن الأحوال.

الدّراسات الأدبيّة

استأثر شعر بشّار بن بُرد - وهو رأس المُحدثين - بكلّ جهد أندري رومان في الدّراسات الأدبيّة، ولم يهتمّ من شعره إلاّ بما كان في المحبّة والعشق، دون ما كان في النّساء رغبةً جامحة، ونزوات عابرة، وخلاعة فاضحة.

ولم يملأ شعر الشّاعر صبابةً وتولّهًا وحرقةً وبردًا وسلامًا من النّساء غير "عبدة".

فكانت موضوع كلّ ما كتب الباحث تقريبًا عن بشّار وشعره. وجملة الجهد ثلاثة أعمالٍ مهمّة، منشورة، كما نترجم عناوينها.

1- "في أبيات الشّعر الدّائرة على العيون والنّظر في شعر الشاعر الأعمى بشّار بن بُرد".

نُشر في مجلّة جامعة القدّيس يوسف (M.U.S.J) المجلّد 46، بيروت، 1970، ص ص.481ـ 514.

2- "معاني شعر بشّار المُستلهم من "عبدة"، نُشر في مجلّة الدّراسات الشرقيّة (B.E.O) المجلّد 24/1971، ص ص. 157 ـ 226

3- "بشار وتجربتُه في العشق والمحبّة : شعره في "عبدة": النّص العربي، الترجمة، المعجم" سلسلة أبحاث بيروت 1972، 487 صفحة

لم نتمكّن من الاطّلاع على المقال الأوّل، وهو في أربع وثلاثين صفحة(34)، وإن كشفتْ لنا بعض الإشارات إليه، هنا وهناك، في ما كتب المؤلف عن القضيّة الأساسيّة التي يطرحها، وهي مسألة قديمة معروفة في تاريخ نقد الشعر، وهي التّعويل الوصف على السّماع لا على المشاهدة، أو بمعنى آخر الوصف الذي تُمكّن الثقافة منه الشاعر، فيبرع في المحاكاة، وقلب السّمع بصرًا، كأنْ قد رأى، وقد شهد، ومن ثمّ يقع الدّخول إلى الحكم في مسألة التحديث في شعر المحدثين، وأنّهم رغم كلّ ما أتوا، ولهجت به بعض أوساط النقاد، لم يخرجوا عن المنوال الذي سطّره القدماء، ولم يغيّروا نوع الكتابة، وإنْ أدخلوا فيها من وجوه البديع والمجاز أكثر مما فعل منْ تعلّموا عليهم وتخرجوا على منوالهم من القدماء. فالشعر قبل أن يكون إبداعًا وابتداء، ثقافة واتّباع، أو كان هكذا عند العرب، على ما تذهب إليه أغلب تواريخ الشعر الغربي المكتوبة بلغات أجنبية، وكثير ممّا كتبه العرب أيضًا.

أمّا العملان الآخران، وهما كتاب ضخم، ومقال في حجم كتيّب، فهما العملان الأساسيان في إسهامه الأدبي من جهة الكمّ، ومن جهة الكيف والمقاصد التي رسمها المؤلف، وجهات لعمله الكبير المُضني في كثير من جوانبه.

ورغم ما بين تواريخ النّشر من اختلاف، فإنّ العمل الثاني الدّائر على "معاني الشعر" مستّل من العمل الثالث "بشار وتجربته..."، بإشارة صريحة من المؤلف في مطلع مقاله المطوّل.

ولذلك، قدّمنا الحديث عن الكتاب قبل الحديث عن المعاني المشتقة من الكيفية التي تمّ تصوّره عليها، والتي - كما سنبيّن - تحتاج إلى مزيد ضبط بمقال يسهّل على القارئ استعمال الكتاب.

ـ "بشار وتجربته في العشق والمحبّة، شعره في عبدة: النّص العربي، الترجمة، المعجم".

أوّل ما تجدر الإشارة إليه قبل الدّخول في الحديث عن الكتاب، اهتمام أوساط الاستشراق به، وبعض العرب الذين يكتبون بلغات أجنبية، بُعيد صدوره، بينما لم يرد ذكره فيما اطّلعنا عليه من دراسات عن شعر المُحدثين، وشعر بشار، خاصة فيما ألّف بالعربيّة بعد نشر الكتاب. فقد وجدنا له تقديمًا نقديًا في "مجلّة الشرق الأوْسط"(M.E.J) المجلد 1/28، 1974، ص. 85؛ كما وجدنا له تقديمًا في "مجلّة مدرسة الدّراسات الشرقيّة" (B.S.O.A.S) المجلّد 37/ 2 سنة 1974، ص 523؛ ووجدنا له تقديمًا بمجلة أرابيكا (Arabica) ، المجلد 21/ 3، أكتوبر 1974، ص 337، بقلم الأستاذ الجزائري الفرنسي جمال الدّيــن بن الشيخ، ووجدنا كذلك تقديمًا في "العالم الإسلامي" (M.w)، جانفي 1975، ص 56 بقلم عيسى بُلاّطة، ووجدنا أخيراً تقديمًا متأخّرا نسبيًا بمجلة "Orientalistische literaturzeitung" العدد4، جويليةـ أوت 1979، ص 363.

وجهل العرب في الغالب بجهود من اختصّوا في المجال العربــي بكــلّ مكوّناتــه، أمْر غيـر طبيعيّ. والمبرّرات السّهلة

– أحيانًا - التي نجدها فيما كُتب عن المستشرقين والاستشراق، يجب ألاّ تمنع من الإقبال على دراسة جهودهم، وتبيّن ما فيها من رأي خالص، ورأي دخيل، وعلى مناهجهم في البحث والتدقيق والتّمحيص، ولا يهمّ بعد ذلك أن نأخذ بما انتهوا إليه، أو لا نأخذ به، فالتمشّي في العلم أهم بكثير من النتائج الحاصلة. ومن هذه الناحيّة تكون هذه السّلسلة، التي تصدرها جائزة الملك فيصل، خطوة مهمّة لتوسيع دائرة معارفنا بهم، وتقديم دراساتهم إلى القراء، حتى يحصل لهم علم بها، وإبداء الرّأي فيها بعد ذلك.

يبدأ المؤلف - بعد الاعتراف بالجميل لمن أعانوه وشكْرهم - في تأكيد حقيقة يعرفها الدّارسون، وهي أنّ "بشّارًا" أصبح معروفًا حقيقة بعد نشر الشيخ محمد الطُاهر بن عاشور ديوانه، بداية من 1950، ومن ثمّ أصبحت دراسة الرّجل وشعره ممكنة، فكان الاهتمام بشعره في "عبدة"، إسهامًا في التعريف بتجربة الرّجل في العشق، وفي الكتابة الشعرية عمومًا.

يشير –أوّلاً- إلى أنّ شعره في "عبدة" يستأثر بخُمس الدّيوان تقريبًا، فهو 1195 بيتًا، من جملة 6628، تنبني على 3000 لفظ مختلف، و15000 حالة يرد فيها اللفظ نفسه في صيغ مختلفة، أو بألفاظ من مجاله المعنوي. والجدير بالذكر أنّ بعض استعمالات بشار في هذا الشعر لا نجد لها ذكرًا في المعاجم، أوْ وردت بمعان أخرى، ليست على ما ضبطت المعاجم. (انظر: إحالات من 27 إلى 30، ص 15)

وقد قام الكتاب - عدا مصاحبات البحث النّقدية - على ثلاثة أقسام كبرى:

ـ مدوّنة الشّعر في "عبدة"، قصائد كانت أو مقّطعات، وضبطها ضبْطًا كاملاً بإثبات مختلف الحركات، بما في ذلك ما تفرضه قراءة البيت مجموعًا موصولاً محترمًا ضوابط البحر. وهي طريقة مطّردة في دراسات الاستشراق. ولم يكتف في جمع الشعر بما ورد في الدّيوان، وإنّما التفت إلى ما في بعض كتب أخبار الأدب، فجمع ما فيها من أشعار لبشار في "عبدة"، وأخبار تخصّ العلاقة بينهما، وكيف صاغها تقلّب الأزمنة، وابتعاد المخبرين عن زمن الوقائع، صياغة تبْني النّموذج والمثال، وتخرج بالعلاقة من مجال الوقائع المظروفة بزمان ومكان إلى صورة متعالية لها ما للنماذج من قدرة على عبور الأزمنة والأمكنة.

وقد رأيناه رجع إلى كتابين هاميّن، هما: "زهر الآداب وثمر الألباب" لإبراهيم الحُصْري القيرواني المتوفّى سنة 413هـ، وكتاب "الأغاني" للأصْبهاني المتوفّى أواسط القرن الرابع هجري. وقد كان اعتماده على "الأغاني" أهمّ من اعتماده على "زهر الآداب"، فمنه استمد من ص 187 من كتابه إلى ص 197، معطيات تهمّ ترجمة بشار، تصاحبه أخبار عن حوادث هامة في حياته، ثمّ نراه من صفحة 198 إلى 223 يورد معطيات وأخبارًا تهمّ علاقته بعبدة دون سواها.

ـ ترجمة الشعر، وهي تتمّ بالتّوازي مع إثبات النّص

العربي، صفحة بصفحة، حتى لا يحتاج القارئ إلى ما يشتّت ذهنه بالبحث عن المناسبات بين ما هو بالعربيّة، وما هو بالفرنسيّة. ثمّ إنّ هذه الطريقة تسهل على من أراد التثبت من إيفاء الترجمة بما في النّص من معان، وما قصده الشاعر. ونجد مع الترجمة في هامش الصفحة تعليقات مفيدة، وأهمّها إثبات الصّيغ المختلفة التي ورد عليها البيت في كتب أخبار الأدب، أو رجوع الشاعر إليه في صيغ أخرى في مواطن من ديوانه...

والمؤلف يعترف بصعوبة العمل الذي أقدم عليه، لا سيّما وهو يترجم أدبًا، والأدب من أهمّ النّصوص التي تظهر فيها الفروق الحضارية والثقافية بين لغة وأخرى؛ لأنّه إنتاج للمخيال في بنائه دوْرٌ أساس، وللصّور جداول تختلف من لغة إلى لغة، وموضوعه يجبره على أن يترجم الأمور كما جاءت، لا كما يختارها، ليجعل منها "زهر آداب" يسرّح في فضائها قدراته في النّقل، ومساعدة النّص على الهجرة من صقع إلى صقع، ومن عوالم تصوّر واعتقاد إلى عوالم أخرى.

إنّ عمله تقديم لمجموع شعري بهذا الحجم لقارئ فرنسي، فلا بدّ أن تكون فيه أماكن ضعف في الترجمة، وأن يجد نفسه أمام صور لا يقبلها الذّوق الغربيّ؛ لأنّه يراها من زاوية غير الزّاوية التي منها نُطلّ في النصّ العربي على العالم الذي نعيد صياغته باللغة، وطريقة لغتنا في تقطيع العالم.

والمهمّ بالنّسبة إلى المؤلف أنّ التّرجمة تؤدّي - زيادة على

وظيفة النقل والتعريف والتّبادل - وظيفتين كُبريين: الأولى أنّها تجبر المترجم على ضبط المعنى المترجم في لغته الأصل، وتدقيق العلاقات القائمة في بيت الشعر، بين مختلف مكوّناته الإيقاعية والأسلوبية والدّلالية، وهذا قد لا يتمّ إن كانت القراءة غير مقيدة بمثل هذا الالتزام الأخلاقي والحضاري، وثانيتهما أنّها في هذا العمل ذاته الذي يسعى إلى الصّياغة الأجمل والعبارة الأحسن، يحاول أن يقدّم عشق بشّار لعبْدة، كما صاغه الشاعر في لغته وفي مجتمعه وزمانه.

- المعجم: وهو أكبر أقسام العمل، يمتدّ من صفحة 225 إلى صفحة 474، يضاف إليه معجم آخر صغير، ضبط فيه ما ورد عند أصحاب المختارات وأخبار الأدب من شعر في الغرض، ويمتد من صفحة 475 إلى صفحة 480.

وهو جامع لآلاف الألفاظ، وأنماط ورودها في الشعر، رُتّب على الكلمات التي تولّد المعنى أو تدققه، أو تسهم في ضبط مداه مع ضبط الإحالة على الأشعار في كلّ لفظ، ولم يقتصر على اللفظ في مختلف صِيَغِه وإنّما دار أيضًا على تواردها الذي يتقاطع مع المعاني التي تؤدّي الألفاظ المراجع. وغاية المؤلف من كلّ ذلك تقديم فهرس على درجة عالية من الدّقة.

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى تقاطع اختصاصين أساسيين يقفان وراء هذا النّوع من الأعمال، وهما الاختصاص اللغوي الحاضر في كلّ ما قام به - وليس بناء معجم للشعر إلاّ صورة

من صور بناء المعجم اللغوي بشكل من الأشكال-، والاختصاص الإعلامي، وقد سبق أن أشرنا إليه عند حديثنا عن الموافقات التي أنجزها إعلاميًّا لكتاب "التوهّم" للمحاسبي.

وتضافر الاختصاصيْن جعل من هذا العمل إنجازًا مهمًّا، ومدخلاً إلى شعر الشاعر في الغرض المختار، ينبني على أسانيد وأدلة موثوق بها، ولكنّه يجعله في الآن نفسه صعب الاستعمال، لا سيّما إنْ كان الناظر فيه يرجو الفائدة بأدنى الجهد. هذا عدا ما يمكن أن يعترض به على صاحبه من قضايا نظريّة وعمليّة واجهها كلّ من ظنّوا أن عوالم الدّلالة والتّأويل يمكن أن تسيّج بالمعاجم مهما أوتيت تلك المعاجم، من التنويع، وفتح الباب أمام الإمكانات.

إلاّ أنّ معجمًا من هذا القبيل يبقى مدخلاً مفيدًا إلى لغة الشاعر، فهّو يوفّر أحسن السّبل لدراسة طريقته في صياغة العبارة، واختيار الكلمات، والتفنّن في أساليب استعمالها.

ـ معاني شعر بشار المستلهم من "عبدة". وهي دراسة مطوّلة سابقة في النّشر للكتاب الذي تحدثنا عنه آنفًا ولكنّها ترتبط به ارتباطًا متينًا، كونها تفصيلاً للمعاني التي أشار إليها في الكتاب، وجعل المعجم دليلاً إليها.

ولئن أشار في الكتاب السّابق إلى دور المعجم في إمكان دراسة المعاني دراسة مفصّلة، تعين على ذلك أيضًا الترجمة التي تسمح بالوقوف على البنية المعقدة للمعنى، بما يكوّنه من

معجم أصل هو نواته الصّلبة، ومعجم من حقله الدّلالي يبنيه البناء المركّب.

إلاّ أنّ شعور المؤلف بصعوبة استغلال المعجم الاستغلال الأمثل، أمام كثرة المداخل الرئيسة وتعدّد مكوّنات الدّائرة الصّغرى في فلك المعنى الرئيس، هو الذي حمله على أن يصنع هذا المقال المطوّل، ذلك أنّه لا بدّ من عرض منظّم لما لا ينتظم من العواطف، كعاطفة الحبّ، حتّى يمكن الاختصار والتّلخيص، باعتبارهما افتتاحًا لمغامرة العشق والمحبّة.

وقد حدّد في منطلق المقال المعاني الكبرى التي تتخذ في التحليل شكلاً عنقوديًّا لما يتّصل بها ويتعلّق من معان فرعيّة صغرى، وهذه المعاني ذكرها على التّرتيب التّالي:

- وصف المحبوبة، أو الصّور المستدعاة لذلك الوصف
- في طبيعة ما يعتلج من عواطف وأسبابه
- حبّ الشّاعر
- سلوك من وهبها قلبه أو حبّه
- دموع "عبدة" وشكوى بشار
- توافق ما يحملانه وتناغمه
- الغريمة المستحيلة
- تاريخ حبّهما

- غربة العاشق ووحدته
- معرض بأوصاف كلّ من شقّ هذه العلاقة، وكان له دور فيها، لا يقتصر أمر ذلك على النّاس، وإنّما يتجاوزهم إلى السّحرة والجنّ والقدر وإرادة اللّـه في خلقه.

ثمّ يأخذ في تفصيل هذه المعاني الكبرى، مستدعيًا كلّ مرّة ما يناسب المعاني الجزئية من الأبيات. ولكثرة ما يرصّف من معان جزئيّة، تغدو قراءة المبحث أحيانًا شتاتًا لابدّ من إعادة تركيبه، والتأليف بين معطياته.

ولا شكّ عندنا في أنّ اختصاصه اللّغوي الغالب عليه سبب في هذا التّوغل في دقيق المعاني؛ حتى يقف على مبتدئها وأصلها، مثلما يفعل اللغويّون الذين ينطلقون في أبحاثهم من الصّوتم والمعنم لبناء المركبات.

ورغم جهد التّوضيح والتّدقيق، يبقى العمل مستعصيًا على الذين لا يصبرون على مصاعب البحث وطريقه الوعرة الكأداء.

أمّا الذين يتحمّلون أتعاب التوغّل في الدّقائق والرّقائق، فإنّهم يفوزون من هذا الجهد المضني الذي بذله الباحث، وبناه على آلاف الجذاذات، ومثلها من التوافقات والتقاطعات، يفوزون بزبدة الجهد، يصرّفونها بعد ذلك ما شاؤوا من وجوه التّصريف، ويردّونها إلى خطاطات مختزلة، قادرة على ردّ المجزّء والمغرق في التفاصيل إلى أبنية متعالية، تختصر على القارئ الطريق،

دون أن يضيع شيء، أو يقع الزّهد في شيء، أو هي انطلاقًا من ذلك الجزء، تنوّع المداخل، وتبني على المعاني معاني جامعة، في وسعها أن تمتصّ الكثير ممّا جاء في هذا المعجم المفصّل.

ومن أبرز ما أمكننا الاطلاع عليه في هذا المضمار إسهام الأستاذ "أندري ميكال" (André Miquel) الذي جاء في الكتاب التكريمي لأستاذين من أساتذة جامعة ليون II وهما "أنور لوقا" و"أندري رومان"، والذي أشرف على إعداده الأستاذان "جوزاف ديشي" و"حسن حمزة"، ونشره المعهد الفرنسي للشرق الأدْنى، وأسهم في نشره المجلس الجهوي لمقاطعة "رون ـ آلب" (Rhône-Alpes)، وجامعة ليون 2 .

المقال مترجمًا: في الزّمن من جهة بشّار (ص 107 ـ 111 من الكتاب المذكور). يذكر صاحب المقال - وهو من أبرز مستشرقي المدرسة الفرنسيّة، وإن كان لا يحبّ هذه التسميّة - كان مديرًا عامًا للمكتبة الوطنية في فرنسا، وأستاذًا في أهمّ مؤسسة علميّة، هي " الكوليج دي فرانس" (Collège de france)، وهو إلى الآن أستاذ شرفيّ فيها، يذكر من مطلع مقاله بيتًا للشاعر الفرنسي رُونْسار، يلخّص مأساة الإنسان مع الزمن، إذ يظنّ المرء أن الزّمن يمر، ّ ولكنّه ينتبه وهو يخاطب سيدته (محبوبته)، بأنّ الزمن باق، والأحياء يمرّون ويدخلون بلا رجعة.

ويقول إنّه ليس في الأرض شاعر محبّ إلاّ أن يقول ما قال رونسار، و"لئن كان الشّعر في أشكاله القديمة إعادة لمعان أزليّة

تهدهد حياة النّاس وتُحيّرهم، فإنّ من دور الشاعر الحق أن يخطّ في هذا البلد القديم كلّ مرّة مسالك جديدة".

ومن ثمّ جاءت الرّغبة في محاولة الوقوف على المسالك التي خطّها بشار وهو يماشي الزّمن أو يتأمل فيه، أداته المساعدة على ذلك "المعجم اللافت الذي وضعه أندري رومان تكملة لكتابه عن بشار وتجربة العشق والمحبّة عنده، بناء على شعره في "عبدة".

ولم يأل الباحث جهدًا في بيان أهميّة المعجم وكونه أداة ضرورية لدراسة شعر بشار في الغرض الذي إليه قصد، مذكرًا بثراء هذا المعجم وما فيه من ألفاظ بالعشرات والعشرات، مفردة أو مجموعة. لك أن تنظر فيها، كما هي، حيث هي، لفظًا لفظًا، تدقّق معناها وتبحث عن فويرقات المعاني وقيمتها في النّص أو في السيّاق في القصيدة أو في الدّيوان بأكمله.

ولئن كانت القصائد أو القطع الشعرية المختارة لا تأتي على كلّ شعر بشار في الغزل، فإنّها تقدّم عنه مع ذلك صورة وفية، أو هو ربّما الرّحيق وزهر الشعر الذي أهداه إلى المفضلة من النّساء.

ولكن ميكال يقف بعد هذا التقْريظ على ما ينتاب المتفرّس فيه من حيرة أمام كيفيّة التّصنيف، والاختيار من هذا الخضمّ الضّخم الذي يُسلم لك قياده بعد طول تفكير في جداوله ومكوّناته، فتحملك الكلمات في النهاية لا إلى معانيها، وإنّما

إلى عوالم الشاعر الإنسان "الذي يعرف أكثر مما يعرف إخْوته أن يحدّثهم حديثًا إن لم يأتِ فيه على سرّ الحياة الأعظم والحبّ والموت، فهو يمدّهم على الأقل بتجربة هذا السّر، وأنّه تجربة مشتركة بين النّاس جميعًا، إن هم سمعوا مقالته ووعوها".

ويردّ هذا المعجم الموسوعي الكنز أو المكنز - رغم ما قد يعتوره من وجوه نقص لا تأتي على عظيم فوائده - يردّه إلى ثلاثة أزواج متقابلة تؤسّس الموضوع الذي اختاره، ولكنّها تحيط في الوقت نفسه بمعظم المعجم، وهذه الأزواج هي: الزّمن المعيّن/ الدّيمومة، الليل / النّهار والحياة / الموت. ويتناول كلّ زوج من هذه الأزواج بالدّراسة، مستدعيًا ما يدخل من الكلمات والصّيغ في هذا الطرف، أو في ذلك من المقابلة. وقراءة هذا النّص إلى جانب كونها ممتعة وغنيّة وفي مستوىً من التأليف لا يتوافر لكلّ قارئ، تؤكد أهميّة هذا المعجم، والإمكانات التي يقدر أن يمدّ بها القرّاء؛ للخروج بمواضيع تأليفية أخرى، تساعد على إغناء دراساتنا للأدب العربي والشعر القديم والمحْدث بوجه خاصّ.

الدّراسات اللغويّة

كثير من مؤلفاته تبدأ بصورة مقالات تتناول الموضوع من جوانب مختلفة، وتتأكّد من صحّة الفرضيات وأهميّة النتائج، وتنتهي في الغالب كتبًا تُتوّج الجُهد المبذول على امتداد سنوات طويلة. ويبرز ذلك بشكل جليّ في مؤلفاته اللّغويّة التي يفصل بينها وبين ما يتّصل بها من مقالات سنوات طويلة أحيانًا. بدأت تباشير ميوله إلى الدّراسات اللغويّة سنة 1972 عندما نشر في مجلة Arabica الشهيرة (مجلّد 3/19، ص 301 ـ 315) ملحوظاته عن ضمير الغائب الجمع "هم" في الآيات التي وردت فيها تسمية اللّـه".

ثمّ اشتدّت وتيرتها منذ 1973، مؤذنة كلّها بمشاريع تأليف ستكون إسهامات أساسيّة في دراسة اللغة العربية من مختلف أوجهها، وبطريقة تسعى إلى الفوز بالمَناويل والأنْساق النظرية التي يمكن ردّ تلك الأوجه إليها، والوقوف على النواميس الخفيّة التي تشدّ بناءها. وستكون هذه الإسهامات إما أعمالاً أكاديميّة نال بها صاحبها أعلى الشهادات الجامعية في فرنسا، أو مؤلفات جلبت إليها انتباه الفئة العالمة في اختصاصها، وجلبت لصاحبها التقدير، حتى عُدّ في دراساته للعربيّة - وهي عنده - اللغة المرجع في هياكلها وأنظمتها للّغات السّاميّة قاطبة، من

اللّسانيين الذين يُعتّد برأيهم، ويُعوّل على ما يقدّمونه من آراء في اختصاصه، وفي اللّسانيات من جهة نظريّة عامّة.

فلقد نشر سنة 1973 بآكس آن بروفانس في مجلة المغرب الإسلامي والمتوسط"(R.O.M.M) العدد 15ـ16 ص291 ـ300، مقالاً فاتحة لا يتجاوز عدد صفحاته العشر عن "صَوتميّة العربية"، ولكنّ بعض الدارسين يعدّونه تباشير مؤلفَّين مهمّين سيتوّجان رحلته الطويلة مع اللّغة التي اختار أن تكون شغل حياته الفكرية والمهنية، وهما "نسقيّة اللّغة العربيّة" في جزأين، نشره سنة 2001، و"نحو اللغة العربية النسقي" باريس 2011، نشر لارماتان (L'Harmattan).

وهي مؤلفات ذات قاعدة نظرية واسعة وصيغة تجريديّة مرهقة أحيانًا بحيث لا تتيسّر قراءتها إلاّ لمن له في التراث النحوي العربي قدم راسخة، وباللّسانيات معرفة تتجاوز الفذلكات التاريخية إلى دقائق المعارف التي تنبني عليها المدارس الكبرى في مختلف مكوّنات الظّاهرة اللغوية، ولا سيّما ما تعلّق منها بما يمكن أن نطلق عليه المعارف الذرية التي تتناول أدق المكوّنات، وتذهب به صعُدًا لبناء منوال نظري له طاقة تفسيريّة عالية.

وليست هذه الكتب التي ذكرنا - وهذا أمر يجدر بنا التأكيد عليه - نتيجة ظاهرة عابرة خطرت، وإنّما هي نتيجة عمل متواصل، وبحث لا يتوقف، ونشر مسترسل ومراجعة لا تهدأ. فقبْل صدور هذين الكتابين، وكتب أخرى، نشر أندري رومان

عشرات المقالات في موضوعهما، ممّا مكّنه من اختبار قوة الفرضيات التي اتّخذها قاعدة لبناء النّسق، ليكون ذا طاقة تفسيريّة عالية مقنعة.

فبالإضافة إلى المقال الذي سبق أن أشرنا إليه، نجد المؤلف مهتمًا "بالنظام الصّوتمي للعربية" الفصحى"المعاصرة"، في مقال نشره بالمجلة نفسها (R.O.M.M) المجلّد 18، آكس آن بروفانس، 1984، وقد بيّن فيه أنّه نظام مبنيّ على التمييز الصّوتميّ بين الصّوامت والمصّوتات، وهو تمييز يتحكم في الصرّف (وسيسمّي المؤلف هذا في دراساته اللاّحقة نظام التسمية).

والتأسيس لا يقوم إلاّ بإبعاد الأوهام التي علقت بدراسة اللغة دون أن يتثبت القائمون عليها من صحّة ما تناقلوه. ومن أشهر مقالاته مقال قصير لم يتجاوز سبع صفحات، أبطل به ما كان عالقًا بأذهان النّاس من القول بوجود "أنصاف المصّوتات" في العربية، ومن ثمّ إبطال القول بالحركة المزدوجة، إذْ لا وجود في قولنا (بيْت) (Baytun) إلى انتقال متدرّج من المصوّت = إلى حرف اللّين "ي"، ولا يعدو الأمران يكون صائتات متبوعًا بصامت "ي"، كما هو الشأن في (بحر).

كما كانت دراساته المختلفة لما كانت مدرسة الاستشراق تسمّيه - كما سبق أن ذكرنا - "koïné"، أي اللغة المشتركة الواقعة فوق الاختلاف اللّهجي، والتي صيغت بها الأشعار، وكتبت بها المواثيق والعهود في أقدم ما وصلنا منها.

فقد اهتمّ بنظام الصّامتات فيها من خلال كتاب سيبويه، كما درس تحديد الخليل بن أحمد لمناطق نطق العربيّة المشتركة في جهاز التّصويت، كما قدّم ملحوظات عامّة عن مقاطع اللغة العربيّة وأنساقها المختلفة، ودرس النّسق الشكلي للفعل العربي.

وقد نشرت كلّ هذه الدّراسات، ودراسات أخرى لم نذكرها، بين 1977 و1978، واللافت للنظر أنّه نشر سنة 1977، ثلاث دراسات في أمور فنية دقيقة، ونشر دراستين في 1978، وممّا يدلّ على أنّها دراسات مهمّة نشرها في مجلات، شروط النّشر فيها شديدة إلى حدّ الاجحاف أحيانًا. فدراسته عن تعيين الخليل لجهات نطق العربية في الجهاز الصّوتي ومواقع الاعتماد، ونقط الارتكاز، نشر في مجلة Arabica (مجلّد 1/24 ص ص 58ـ65)، أمّا دراسته عن نسق الفعل العربي الشكلي، فقد نشر في مجلّة Linguistics (ص ص 185 ـ 194، Moutonr، 1978 La Haye, ـ Paris)، والأعمال الأخرى نشرها بكرّاس مختصّ في اللّسانيات بجامعة آكس آن بروفانس، وقد أنجز فيها كلّ المقالات المذكورة، وقد ساعده على إنجاز بعضها ما كان في الجامعة من أساتذة مختصّين في اللّسانيات، ولا سيّما في الجوانب الصّوتية والصوتمية، وما كان يتوافّر فيها من مخابر، حتى عدّ المخبر الذي يديره الأستاذ ماريو روسّي (Mario Rossi أستاذ الصّوتيات - وكانت تربطه بأندري رومان صداقة متينة - من أوسع مخابر أوروبا، ومن أحدثها تجهيزًا.

ورغم غلبة المنحى اللّغوي على أعماله بداية من 1972، فإنّ الاهتمامات الأخرى لم تغب، فلقد نشر سنة 1978، أطروحته للحلقة الثالثة التي أشرنا إليها في ترجمته، وفي السّنة نفسها نشر مقالاً عن بشار، مواصلة لما كان أنجز عن "عبدة" في شعر بشار (مجلة الدّراسات الشرقية، B.E.O مجلد 30 ص ص 185 – 196، دمشق، 1978).

كما نشر زيادة على ترجمته الدّقيقة الأنيقة لكتاب التوهّم، وهو الجزء المهمّ من دكتوراه الحلقة الثالثة، مقالاً هو "دراسة أسلوبية لكتاب التوهّم"، وقد حاول فيه باعتماد "الأسلوبيّة"، وهي إذ ذاك ملجأ النّقاد وأسّ من أسس الدّراسة الأدبية، ونشره في المجلة المشار إليها آنفًا، مجلّد 31، ص 167 ـ 267 دمشق، 1979 وقد استعرض فيه خصائص الأسلوب، بإبراز مختلف مكوّنات النّص، لاسيّما ما فيه من خروج عن الأنساق المعهودة في الأبنية ومذاهب التّصوير.

وتوالى الاهتمام بدراسة اللّغة، وبدأت ملامح المؤلفات الجامعة تظهر.

فقد نشر ضمن "أعمال معهد الصّوتيات" بجامعة آكس، المجلّد السّابع، ص 103 ـ 117، 1980، مقالاً ظهرت فيه الاتجاهات الكبرى لما سيسمّيه لاحقًا "نسقيّة اللغة العربية"، وانبناء اللغات جميعها، في تصوّره، على "الثنائية". وليس مستبعدًا أن تكون الثنائية جاءته من اهتمامه الأوّل بالإعلاميّة،

ودراسة النّصوص العربية دراسة آليّة. ونشر في مجلة (Arabica، مجلّد 28/ 2ـ3، ص ص127 ـ 161، 1981) مقالاً بعنوان: "في أنّ العربية منوال عامّ لتكوّن اللغات السّاميّة وتطوّرها" وفيه أصبحت الفكرة الواردة في المقال السّابق فرضيّة كبرى، تبنّاها أندري رومان، ومفادها أنّ نسق اللغة العربية يوافق المنوال الأكثر اشتمالاً على بنية اللّغات السّامية. ومن هنا برزت أسباب تدفع إلى الذهاب إلى أن اللّغة العربية لغة قديمة جدًّا، وليس من الضروري أن تكون العبريّة والآرامية وغيرهما أقدم منها.

وقد صبّت دراساته الجزئية عن اللّغة المشتركة في كتاب ضخم، في جزءين و1183 صفحة، تقدّم به لنيل شهادة دكتوراه الدّولة – كما سبق أن ذكرنا – وعنوانه:

"دراسة صوتميّة وصرفيّة للغة العربيّة المشتركة (koïné)، منشورات جامعة بروفانس ـ جان لافيت (Provence Jeanne Lafitte)، آكس آن بروفانس، مرسيليا، 1983.

وكلّما تقدّمنا في الزّمن بدأت ملامح التأليف الذي سيتوّج حياته العلميّة تتضح. فقد نشر سنة 1983 مقالتين أولاهما موضوعها "ميلاد اللغة العربية وانبناء صيغها الفعليّة"، وقد نشرها ضمن مجموع بعنوان "اللّسانيات مطبّقة على اللّغة العربية ص 29 ـ 45، منشورات مركز الدّراسات الاقتصادية والاجتماعية، الجامعة التونسية 1983.

وثانيتهما بعنوان "في تكوّن وحدات اللغة العربيّة"، وقد

نشرها ضمن "أعمال حلقة آكس آن بروفانس اللّسانية" مجلد 1/ أقسام الكلام، ص 113 ـ 114.

وهذا التكوّن يستجيب في تصوّر المؤلف إلى بنية ثنائية، سيكون لها شأن كبير في الصّرح النظري الذي أقام عليه تفكيره في اللغة العربية، كما سنبّين لاحقًا.

كما نشر سنة 1984 مقالة تناول فيها "جهات انبناء الفعل في العربيّة"، ونشره في المجلّد الثاني من أعمال حركة آكس آن بروفانس اللّسانية وقد خصّص لما تسمّيه العربيّة "المبني للنائب" ص 145ـ 158.

وفي سنة 1985 نشر مقالة باللغة العربية، موضوعها "بحث زمانيّ عن الاسم العربي"، نشره في "حوليات الجامعة التونسية العدد 24، ص 41 ـ 63، تونس 1985. وهو من طلائع الدّراسة اللغويّة التي ستنحو منْحىً تاريخيًا.

وفي سنة 1986 نشر مقالتين، الأولى في مسألة لغويّة على صلة باهتماماته الإعلامية، وهي "تحليل صرفي تركيبي عامّ لمكوّنات الجملة العربيّة من أجل ترجمة عربيّة بمساعدة الحاسوب". وهذه المقالة كتبها في نطاق المشروع الوطني الفرنسي للترجمة الآلية، أو الترجمة بمساعدة الحاسوب.

والثانية في غاية الأهمية لأنّها الشكلنة العامّة الأولى لما سيكون "نسقيّة اللغة العربية"، وقد اختار لها عنوان "خُطاطات

أنظمة التّسمية، والتخاطب في اللغة العربية" وقد نشر في Quaderni di Studi Arabi عدد 4، ص 87ـ115 البندقـيّة 1986 (سنة 1987).

وفي 1987 نشر ثلاث مقالات مخصّصة كلّها للبعد التاريخي في تناول ظاهرة اللّغة، مقالة باللّغة العربيّة عنوانها "في تطوّر اللغة العربيّة وعوامله"، نشرت ضمن "أعمال الملتقى الثالث اللّسانيات العربية" (فيفري 1985) ص 107 ـ 123 تونس 1987.

* لا تهتمّ إلا بما له علاقة بدراساته اللغوية الممهّدة لتآلفيه الكبرى، وإلاّ فإنّه نشر في السّنة نفسها في مجلة جامعة القديس يوسف في بيروت مقالة عن "الإسلام: اللغة وحي وسلطة"، ص 145 ـ 158
* كما نشر في السّنة نفسها مقالة في موضوع ثقافي سياسي، وإن كان لا يخلو من النفحات اللغويّة، عنوانه: "الفرنكفونية والعالم العربي، شؤون ثقافية ولغويّة". وهو لا يعدو أن يكون آراء مختصرة (صفحتان) في مسألة ليست من جوهر اهتمامه.

ومقالة ثانية في الموضوع نفسه تقريبًا، بعنوان: في أسباب تطوّر اللّغات: مثال تطوّر اللّغة العربية" نشره في مجلة Arabica، مجلّد 2/34 ، ص 129 ـ 146 ـ باريس، 1987.

أمّا الثالث ففي مسألة دقيقة كبيرة الأهمية في البنية المجرّدة التي يسعى إلى الوصول إليها في دراسة اللغة العربيّة، وذلك بالذّهاب إلى أقصى ما يمكن الذهاب إليه في تاريخ اللّغة، في ما يسمّيه proto- Langue أي النّشأة الأولى، أو الخطاطة الأولى، التي تبني بالتصور لا بالوجود الحقيقيّ للّغة التي تمكّن من وصف نظام الأنظمة لهذه اللغة، مثله مثل الخليّة المفردة التي تنقسم، فتأتي منها كلّ الخلايا الأخرى المكوّنة للكائن المركب، وهو يعتمدها هنا بالتصوّر قاعدة لتوليد الألفاظ، عنوان المقالة: "التعرّف على العربيّة الأولى باعتبارها نظاما للأنّظمة وقاعدة لتوليد الألفاظ".

نشره بمجلة Meta المجلد 2/32، ص 170ـ185 مونريال 1987.

وتتواصل دراساته على الوتيرة نفسها، فينشر سنة 1988، مقالتين تتعلّق الأولى بالمصدر في مختلف صيغه، يرتبها ويحللها بمكوّناتها وما يلحق بها من زوائد، ضابطا ذلك بصفة نسقيّة. وقد نشر هذه المقالة في عدد خصّص للمصدر والصّيغ الأصلية غير المصرّفة، ممّا يدخل تحت التسمية الفرنسيّة l'Infinitif وهو من أعمال فريق بحث في جامعة ليون، سبقت الإشارة إليه، واسمه Rhema ص 211ـ 242، المطابع الجامعية بليون، 1988.

وتتعلّــق الثانية بتاريخ اللغات السامية العامّ لإرْنست رينان (Ernest Renan)، ورؤية من أيامنا للّغة العربيّة"، وقد نشرها

بمجلة "دراسات رينانية" العدد 73، ص 3ـ 22، باريس 1988، وقد اهتمّ من رينان بجوانبه الإيجابيّة، باعتباره من الذين يعرفون اللغات السامية معرفة جيدة.

[وتتعلّق الثانية بـ "انبناء اللّغة العربية"، وهي تقديم موجز لما يسمّيه نسق الأنساق، وانتظامه الثنائي. نشرها بنشرية L'Arabisant (المستعرب) عدد 27، ص 61 ـ 72، باريس 1989].

نراه، وهو يبحث عن أصل اللّغة وانتظامها في نسق ذي كفاءة نظريّة وتفسيريّة عالية، يعود إلى اللغويين الأوائل الذين تمثل كتبهم منطلق كل عمل يتعلّق بالعربيّة، يستخبرهم عن طريقتهم في تناول المسائل التي تشغله بشروط زمانهم المعرفية .

وقد نشر في سنة 1988 مقالتين في هذا الغرض، عنوان الأولى: "أصل اللغة العربية وانتظامها اعتمادًا على الصّاحبي لابن فارس" نشرها في مجلّة Arabica، المجلّد 1/35، ص 1ـ 17، باريس 1988. والذين يعرفون أندري رومان يعرفون إقباله على مؤلف ابن فارس، وإعجابه بما لصاحبه من تفكير متماسك وعبارة موجزة، حتّى ليخيل لقارئ هذا المقال أن صاحبه يريد بشروط زمانه المعرفية أن يغوص في نظام العربيّة غوص ابن فارس منها، بشروط المعرفة في زمانه. والحق أنّ لهذا الكتاب منزلة خاصّة عند بعض المستشرقين، منذ أنْ كلّف الأستاذ ريجيس بلاشير مصطفى الشويمي بتحقيقه ودراسته.

وعنوان الثانية: "وضع اللّغة العربيّة في رأي نُحاتها الأوّلين"، وقد نشره ضمن الأعمال المهداة إلى الأستاذ الشاذلي بويحيى وهو من بناة الجامعة التونسية، وأستاذ أجيال متعاقبة مرّت بها، منشورات الجامعة التونسية، ص 29 ـ 43، تونس، 1988.

وفي السّنة نفسها، نشر في مجلة Arabica مجلّد 35/ 3، في صفحات قليلة (3 صفحات، ص 401 ـ 403) ملحوظات عن مسألة اختلاف جنس العدد والمعدود من ثلاثة إلى عشرة، في اللغات السّامية. وقد اقترح في هذا المقال لهذه المسألة العويصة خطاطة عامة، وتفسيرًا يشمل عددًا من اللغات السّامية.

ومن طرق التأكّد من الكفاية النّظريّة لما يروم بناءه للّغة العربيّة، اعتمادًا على مفهومين أساسيين جوهريين، وهما "نسقُ الأنساق" و"البنية الثنائية"، النّظر إلى المسألة في اللغات الأخرى، وإمكانية أن تكون بَناها هي أيضا محكومة بهذه المفاهيم. وفي هذا السّياق يندرج إسهام من إسهاماته الثلاثة التي نشرها سنة 1989. فقد نشر في " أعمال حلقة آكْس آن بروفانس اللّسانية" مجلد 7/ الدّلالة، ص 73 ـ 113 آكس آن بروفانس 1989.

إسهامًا مطوّلاً عنوانه: " في الطريق إلى نظريّة عامّة للدّوالّ اللّغويّة ـ مثال العربية الحاسم".

وفعلاً، نراه يؤكد أن تلك المفاهيم التي يتوسّل بها للمسك بالخلية الأولى البانية للعربيّة، هي التي تقوم عليها اللغة بوجه عام.

وتناول في الإسهام الثاني الذي أنجزه، بالاشتراك مع الأستاذ جوزاف ديشي (Joseph Dichy) زميله في القسم، مسألة "المظهر في اللغة العربيّة"، وقد نُشِر في مجلّة les langues modernes (الألسنة المعاصرة) عدد 3 ـ 4 في "النظريات اللّسانية والممارسات النحوية" ص 135ـ 147، 1989...

أمّا سنة 1990، فهي محطّة مهمّة لأنّها ستشهد ظهور تأليفه عن "النّحو العربي"، في سلسلة شهيرة تنشرها المطابع الجامعيّة الفرنسيّة (P.U.F)، هي: ماذا أعرف؟ وقد كان ترتيبه 1275 من السلسلة، باريس، 1990. وقد جاء في هذه السّلسلة مكان تأليف سابق تجاوزه الزمن، وضعه المستشرق جيرار لوكانت (Gérard Lecomte) من معهد اللغات الشرقية (INALCO). وعلى الرّغم ممّا في كتاب أندري رومان الجديد من دقة وإيجاز وجدّة في النظر (يجب الا يتجاوز الكتاب في هذه السّلسلة 128 صفحة)، فإنّ الجمهور الأعظم من المثقفين لم يستسيغوا ما جاء فيه من اجتهاد وأصالة في التفكير، وربّما يعود ذلك إلى أن النّحو بقي عند كثير من اللّسانيين والمدرّسين والطلبة علمًا تقليديًا، لا تهمّهم منه إلا ما يستفيدونه من قواعد سُطّرت على تصوّر للّغة قديم، بينما أعاد أندري رومان صياغة النّحو العربي على الأسس التي أشرنا إلى بعضها، والتي بناها وأقامها صرحًا نظريًّا مبنيًا بناء النظريّة العلميّة في الفيزياء، أو في البيولوجيا. ولذلك بقي النّاس يستعملون غيره من الأنحاء المكتوبة بالفرنسية، والتي لم يزد

فيها أصحابها على بعض التغيير الذي لا يمسّ البناء الذي أقامه النّحاة، وكان أكثر اجتهادهم في انتقاء الشواهد من كتب أخبار الأدب. وسيؤرّخ أندري رومان - كما نرى لاحقًا - للجهود التي بُذلت في تقديم النّحو العربي بألسنة غير العربية، مركزًا على ما تمّ إنجازه بالفرنسيّة، تأكيدًا على معرفته العميقة بما أُنجز، وأنّ ما يقترحه على القرّاء ليس نحوًا جديدًا، وإنّما هو صياغة أخرى، وتؤول إلى النواميس المتحكّمة من تصوّر كلّي تجريدي متكامل، يفضي إلى القواعد نفسها، ولكن بتعليل قد يختلف، وتأويل للأسباب التي من أجلها كان النظام على ما كان.

وفي السّنة نفسها صدر له بمونتريال، ضمن "أعمال ملتقى مونتريال"، وموضوعه "الترجمة المولّدة" الذي انعقد في أكتوبر 1989، ونُشرت في مجلّة Meta 1/35، مارس 1990، ص 195ـ 206. والعلاقات القائمة بين الأستاذ أندري كْلاس (André Clas) من جامعة مونتريال تقف -لا شك - وراء هذه المشاركة التي نشرت بمجلة تُعدّ من أهمّ المجلاّت العالميّة في ميدان الترجمة.

ومن تاريخ نشره "نحو العربيّة" في السّلسلة التي أشرنا إليها، إلى سنة 2011 سنة نشر "نحو اللغة العربيّة النسقيّ" عند لارماتان (L'Harmattan)، سيتسارع نسق التّأليف، ويتسارع نسق المراجعة والتأكّد من صحّة الفرضيات، وقوّة المقدّمات، وتماسك أجزاء الخطاطات، والبُنى التجريديّة، إذْ ستشهد هذه الفترة صدور تأليفين آخرين هاميّن في مسيرة هذا الباحث

الأستاذ المسكون بهاجس الإمساك بالبُنى المحتجبة وراء ما يتراءى من الأنظمة القائمة التي يطمس قيامها كاملة متطوّرة مآتيها والتّفاعلات التاريخيّة التي جعلتها على تلك الهيأة، ولكن لا يفطن إليها إلاّ الذين يشغلهم البحث - وهم في المصبّ - عن المنابع والبدايات، فقد أصدر سنة 1999. عنْد المطابع الجامعيّة بليون (P.U.L) كتابه عن "إنشاء المعجم في العربيّة: الموارد وحدود الأنساق في لغة إنسانية طبيعية". وهو مرجع عمدة في تفكير أندري رومان في ما يسميه "نسق التّسمية"، وحدود ذلك النّسق بما في الحدود من معاني الممكن ومعاني المتعذّر، ونسق التسمية عنده يعادل نسق الإفضاء أو التواصل، والمهمّ في هذا التأليف أيضًا الباب المخصّص لتطوّر اللّغة العربية في التاريخ، ومسالك تولّد معجمها.

كما أصدر سنة 2001 في جزأين "نسق اللغة العربية"، وهو خلاصة الجهود الكبرى التي بذلها في تقليب اللّغة العربيّة على مختلف وجوهها، والسعي إلى استبطان "ميتافيزيقا" مكوّناتها، والنواميس التي تشدّها، ووجوه التعليل المبتكرة المستخلصة من ثقافة لغوية تراثية، ومكاسب ألسنية حديثة، ومعرفة بكثير من اللغات، بما في ذلك اللّغات السّامية القديمة.

ولئن قدّمنا الحديث عن المؤلفات، فلا يعني ذلك أنّ جُهْد التفكير قد تعطّل في الأثناء، بل إنّ وتيرته اشتدت وقوي نسقَه، وتعدّدت المقالات التي تواصل الجهد الذي حاولنا إبراز بعض

مظاهره. فلقد وقفنا بين 1990 وصدور آخر مؤلف كبير له سنة 2011 على تسعة وعشرين مقالاً، بعضها في جوانب جديدة لم يسبق أن رأيناها، وبعضها الآخر ناتج عن التمْحيص وتناول المسألة الواحدة أكثر من مرّة، ومن جوانب مختلفة، قصد التثبت من إمكان إدراجها لبنةً من لبنات النّسق الذي يحاول الإمساك بأطرافه. فلقد استعار عنوان كتاب عالم البيولوجيا المشهور جاك مونو (Jacques Monod)، وهو" الصّدفة والضّرورة" (Le hasard et la necessité) لينْقله إلى مجال اللّغة، فنشر مقالاً سنة 1991 في مجلة اللّغات الشّرقية (B.E.O) مجلد 43، ص 93 ـ 117، دمشق، 1991، للتأكيد على أن البنية الثنائية للألسنة وانتظامها في نسق الأنساق، ظاهرة عامّة من جهة أنّها تتصل باللّغة المنطبعة في جهاز تفكير الإنسان. وهي الفكرة التي سبق أن رأينا تباشيرها في ما مضى من جهده في البحث والتنظير، وسيكرّس لها بقية حياته العلمية تعميقًا وتدقيقًا وفحصًا حتى استقامت له في ما أشرنا إليه، من "نحو نسقيّ" للغة العربيّة، سنة 2011. وقلب المسألة نفسها على مختلف وجوهها في مقال آخر صدر سنة 1992، ظهر في العنوان الذي اختاره له سعيه الذي لا يُملّ، إلى الأبنية والأنساق، باعتبارها بُنًى مجرّدة تلمّ شتات الظواهر المفردة في كيان متراصّ تشدّ أجزاءه إمكانيات التفسير والتعليل المتماسكة المقنعة. وعنوان المقال "النسق والبنية في اللّغة" نشره ضمن التواصل اللّساني.Linguistica Communicatio، مجلة عالميّة للّسانيات العامّة، فاس، وقد ظهر المقال على

مرتين: مجلّد 2/3، ص 5ـ20، 1991؛ ومجلد 1/4، ص 10/ 23، 1992.

كما رجع إلى مقال 1981، الّذي بيّن فيه أنّ اللغة العربية منوال عام لبناء اللّغات السّامية، وزاد النظر تعميقًا، والبرهان صلابة، وعنون المقال الجديد الذي نشره سنة 1992، بعنوان "ما اللّغة السّامية؟ إجابة أخرى" ونشره ضمن أعمال مهداة إلى بول ڤـارد (Paul Garde)، منشورات جامعة بروفانس، آكس آن بروفنس ـ باريس، 1992، ص 687 ـ 705.

وتعميقًا لما سمّاه "نظام التسمية" في اللّغة العربية، في مقابل نظام الإفضاء أو التواصل، عاد إلى تصوره للصوتَميّة، ولنظام التسمية المذكور في مقال عنوانه: مختلف أعداد الصّوامت في الجذر العربي"، ونشره ضمن أعمال مؤتمر عن النحو العربي، انعقد في بودابست في سبتمبر 1991، ونشرت الأعمال سنة 1992، ص 333 ـ 313.

ولا يمرّ بمسألة من المسائل المهمّة التي يمكن أن تساعد على دعم البناء، إلّا خصّها ببحث أو أكثر من بحث، حتى وإنْ كانت من أمهات القضايا في السّنن النحوية العربية وغير العربيّة بعامة، كمسألة أقسام الكلام، ولكنّه يعود إليها دائمًا بـ " فائض قيمته"، يغنمه من وضع ما رشح من تقليب القدامى النظر في المسألة إزاء ما توصلت إليه اللّسانيات الحديثة، والأنحاء التي أعيد النّظر فيها على ضوء تلك المكتسبات. فلقد سبق أن ذكرنا

في ترجمته انخراطه في وحدة بحث، وكان دعاني وأنا مقيم في ليون للتّدريس، إلى حلقة كان موضوعها: أقسام الكلام، واستمعنا فيها إلى المسألة في لغات عديدة، حاسمًا لمعرفته بكثير من اللّغات. وكان سبق له أن أسهم في اجتماعات علميّة أخرى تناولت الموضوع نفسه، فيها جزء مكتوب، عنوانه "تعريف أقسام الكلام في السّنة النحويّة العربية" ونشرت أعمال هذا الاجتماع سنة 1992.

ومن مقالاته المعروفة في هذا المضمار، مقال بعنوان "نشأة وحدات العربيّة وتنميطها" ضمن "مراتب الكلمات ـ التقاليد والآفاق" المطابع الجامعية في ليون، 1994، ص 117ـ 147.

كما لم يمنعه اختصاصه في النّحو من توسيع دائرة التّناول اللّغوي، فالمطّلع على ما كتب كلّه أو أغلبه، يجد نفسه أمام أعمال تناولت ظواهر بلاغية. فلقد اهتمّ اهتمامًا واسعًا بكتاب الجاحظ " البيان والتبيين"، وتبلور ذلك الاهتمام في مقال عنوانه "في تأهيل اللّغة العربيّة والبيان والتبيين"، ونشره في مجلّة "التّواصل اللّساني" ص 5 ـ 27 فاس 1991.

كما نقف عنده على مقال آخر، حاول أن يضبط فيه البُنى والوجوه المستعملة في اللّغة العربية للتعبير عن الهويّة، نشره في مجلة Arabica، مجلد 40/ 2، ص 141 ـ 171، باريس 1993.

ويجدر أنْ نلحّ على أنّ المتتبّع لجملة ما أنتج في سبيل الوقوف على النّسق الناظم لمكوّنات اللّغة العربية في مختلف

مظاهرها وعديد مكوّناتها، يلاحظ أنّه لم يهمل مظهرًا من المظاهر التي أشار إليها النحاة القدامى في بنائهم نظام اللّغة، وتحديد النواميس البانية لكيانها، باعتبارها منظومة مجرّدة عنها، يصدر المستعملون للّسان عن وعي منهم، أو عن غير وعي. بما في ذلك المظاهر التي لا تثير في الظّاهر مشكلاً، ولا يظنّ المختصّون في اللّغة العربيّة وفي نحوها أنّه موضوع درس وتمحيص يمكن أن يفضي بالدّارس إلى نتائج تدفعه إلى البحث والسّؤال عمّا كان أخذه تقليدًا لا يُحوِج إلى إعمال النظر.

يدخل في هذا المضمار مقاله عن أصل وجود وحدات في اللّغة العربية لا تقبل من حالات الإعراب إلاّ حالتين. وأبرز الأمثلة على ذلك جمع المؤنث السّالم، وقدّم في أكاديميّة العلوم في جمهورية تشيكيا إسهامًا فيه فرضيّة تأويل أصبحت من المسلّمات تقريبًا عند كثير من الدّارسين. وقد نشر المقال ضمن " دراسات في لغات الشرق الأدنى وآدابه"

(Literatures Studies in Near Eastern languages and)،
وهي أعمال مهداة إلى ذكرى Karel Petrek، براغ، 1996، ص 515 ـ 534 (ويذكر المؤلف أنّه قدّم نصّه سنة 1991).

كما اهتمّ كثيرًا بمسألة العدد والمعدود، وآخر ما نَشر في الموضوع بحثًا بعنوان: "التعبير عن العدد في العربية وميلاد المثنى"، نُشر بمجلة "ترجمان مجلة دار المعلمين العليا للترجمة، طنجة، مجلد 4/ 2، 1995، ص، 7ـ 32، ونشَر قبل

ذلك بسنة بحثًا بالعربيّة عنوانه "في اختلاف جنس العدد وجنس المعدود المضاف إليه" ضمن أعمال ملتقى الرّباط (22 ـ 25 أبريل 1992) في "مجالات لغويّة ـ الكليات والوسائط" 1994، ص 17ـ 25، وقد سبق أن رأينا اهتمامه بالعدد (1982، 1992) ومقارنة ما يتعلق به في العربية، بما هو موجود في اللّغات السّامية.

فلئن كانت جهود التأليف عنده تحيط بميادين تبدو في الظّاهر مختلفة اختلاف الإسلاميات عن الترجمة، واختلافهما معًا عن الاعتناء بالشّعر، وبالشعر في التشبيب والغزل بالنّساء على وجه الخصوص، واختلاف كلّ ما سبق عن الدّراسات اللغويّة التي تمتح من التّراث اللغويّ القديم، وما جدّ في الدّرس اللغويّ من تطور في الرّؤى والمناهج وبناء المناويل، فإنّ ما يجمع تلك الجهود كلّها حرص صاحبها على أن يكون مدخله إليها الاهتمام الغالب عليه، كونه من أهمّ من اختصّوا في دراسة العربية من جهة ما يصرّفها من قوانين من الصّوتم إلى الخطاب، وما تتّسم بها أبنيتها من تماسك تاريخيّ بوّأها عنده مكانة لا نظنّ أن كثيرًا من الدّارسين يستسيغونها، لا سيّما من لم تكن وجهتهم خالصة للعلم، وهو اعتباره اللغة العربية نسق الأنساق بالنسبة إلى اللغات السّامية، والمرجع الذي يجب أن يُعتدّ به في دراستها.

لذلك رأيناه - في كلّ ميدان من الميادين التي عرضناها - ميّالاً إلى تناوله - جزءًا أو كلاً تناولاً لغوياً. فلقد كان أسلوب

"المُحاسبيّ " في كتاب "التوهم" أطول أقسام البحث، وإن كان نشره مستقلاً عن الكتاب، ورأيناه في الترجمة حريصًا على انتقاء المفردات، وإيجاد البُنى الكفيلة بترجمة ما يترجم، مع حرص واضح على شكل النّص العربي شكلاً كاملاً، إسهامًا منه في تعليم الضّوابط المتحكمة في نظام اللّغة في كلّ مستوياتها.

ورأيناه - في درسه شعر بشار في "عبدة" - يقيم معجمًا، سمّاه بعض من استعمله مكنزًا وكنزًا، لما يوفّر للباحث من إمكانات الاستغلال بناء على الأصول اللّغوية، وما يدور في فلك تلك الأصول من مفردات وتفريعات على صلة بها، جاءت توسّع في مجال الرّؤية، وتمكّن المعنى المقصود أو الغرض بأن يصل في استكمال مكوّناته إلى أبعد حدّ.

أمّا القسم الذي صرفه لدراسة اللّغة خالصة فهو أغزرها مادّة وأوفرها نصيبًا، ورأينا أنّ الأمر يستحق أن يكون - في تواصل الجهد، وسعة المعرفة بالقديم والجديد، ودقّة المباحث، والتّريث في استخلاص الأحكام - نموذجًا يُتّبع. فلقد أحصينا له على امتداد أربعين سنة ما لا يقلّ عن بحثين ونصف في المعدّل، كلّ سنة، وهي بحوث تستوفي كلّ متطلبات البحث العلمي وزيادة. وهناك جانب من نشاطه سكتنا عنه، وإلاّ كان المعدّل أكثر من ذلك. هذا النشاط يتعلّق بتقديمه لما يُنْشر من مؤلفات في اختصاصه، بإبراز ما فيها من جهد، وما يضيف هو إليها بالنّقد والتّعليق، وغالبًا ما ينشره في مجلاّت مرموقة، كمجلة "أرابيكا".

ولمن أهمّ ما لاحظناه تمهيده لما يعتزم تأليفه من كتب بسلسلة من المقالات في الموضوع المزمع التأليف فيه، تحيط بالمسألة من أهم جوانبها، إنّ لم تكن من جميعها، وهو في أثناء ذلك يحاول تأكيد ما كان انطلق منه من مقدّمات، أو أراد اختباره من سابق ظنّ، أو البرهنة عليه من لمُع اجتمعت من مَآت مختلفة.

والمتثبّت في إنتاجه في اللّغة ينتهي إلى أنّه كرّس عمره كلّه لتأليف وحيد مهّد إليه بعتبات في شكل مؤلفات، إليها انتهت تباعًا جهوده على مراحل، وهذا المؤلف هو " نحو اللغة العربية النسقي"، وقد سبقت الإشارة إليه.

يبدو لنا أنّ أقرب الأعمال التي وقفنا عليها له إلى هذا التّصوّر، وأقدرها على تفسير هذا التوجّه الذي لا يجد عند النّاس قبولاً لما نُشؤوا عليه من طرق معتادة في بناء الأنحاء، ولذلك أشرنا أنّ كتابه عن نحو العربية الذي نشرته المطابع الجامعيّة الفرنسية، وجاء في مكان كتاب كان كَتبه لسلسلة " ما أعرف" الأستاذ جيرار لُو كمت (Gérard lecomte)، لم يلاقِ لدى القرّاء غير المختصّين القبول الذي اعتادت عليه هذه السّلسلة.

هذا العمل هو مقال طويل نشره صاحبه بعنوان: "النّحو العام وأنحاء العربيّة بفرنسا" ضمن أعمال ملتقى علميّ، بعنوان: "لسانيّات اللغات الأجنبية في فرنسا في القرن العشرين"،

باريس، 1999. واللاّفت للنّظر أنّ هذا المقال لم يرد في استعراض أعمال "أندري رومان"، في الكتاب التكريمي له، وللأستاذ أنور لوقا الذي دارت أعماله بجامعة ليون II، ونشرت بدمشق سنة 2004.

لا أعرف لهذا المقال - في حدود ما اطّلعنا عليه - ترجمة إلى العربية. وإن تأكّد غياب هذه الترجمة، فمن الضّروري أن يُترجم لما فيه من توثيق دقيق وشامل لكلّ ما دار على النّحو العربي في اللغات الأوروبية المعروفة الغالبة من مؤلفات إلى زمن كتابة المقال، وهي نهاية التّسعينات من القرن الماضي. والمقال مفيد بمتنه ومفيد جدًّا بما يُصاحب المتْن من هوامش فيها من التّوسّع والإفادة أكثر ممّا في المتن أحيانًا، وأوّل ما يسترعي الانتباه في المقال عنوانه، فلقد جاء "النّحو العام" مفردًا، وجاءت الأنحاء المكتوبة عن العربية بلغات أخرى جمعًا.

والنّحو العام - كما سنرى - هو أيضًا يمكن أن تجري أصوله على اللغة العربيّة، وقد تفرّد به عَلَم من أعلام الاستشراق - كما سنبين -، وبه تأثر "أندري رومان" رغم الاحترازات التي ذكرها عند عرضه له.

وكنّا رأينا أنّ جهده اللّغوي كلّه ينتهي إلى مصْطلحين، هما عنوان كلّ ما ألّف وكلّ ما في برنامجه من تصوّرات عن اللغة، وعن النّوامس التي تتحكّم في وجودها وصيرورتها، وكلّ ما يمكن أن يحدث في أبنيتها من تبديل أو استقرار واسترسال.

وهذان المصطلحان المفهومان، هما: "البنية الزوجيّة أو الثنائية"، ويقابلهـــا عنـــده في المصطلح الفرنسي (binarite) أو (Structure binaire)، ونعتقد أنّه استعاره وآمن بجدواه وكفايته التحليليّة العالية، من علوم الإعلاميّة التي كانت له بها صلة أوّل عهده بالبحث العلمي في مستوى منه متطوّر عندما كان بجامعة القديس يوسف في بيروت، مدرّسًا بمعهد من معاهدها، وكنّا قلنا: إنّ باكورة تطبيق الإعلاميّة في العربية كان في مؤلفه المعنون بكتاب "التوهّم" للمُحاسبيّ المتصوّف المتوفّى سنة 143هـ.

يبقى علينا أن نقف على هذا التّشبّث بالبحث عن البُنى المجرّدة المحتجبة التي تعود إليها حياة اللغة، وحياة كلّ مكوّن من مكوّناتها، في مراتبه المختلفة. وليس الأمر عنده ما يقوم به النحاة واللغويّون عند دراسة كلّ لغة، فتلك خطوة أولى ليست هي الأهمّ في بناء الأنساق، بل إنّ "رومان" كثيرًا ما أبان عن تهافت كثير ممّا قرّره من قوانين، يتبيّن في ما بعد أنّها لا تحيط بتلك الحياة، بل إنّها تحدّ من غناها، بما تسلّطه على ما تختار من مدوّنات لا تعكس اللغة في حقيقة استعمالها، ممّا يضطرّهم إلى البناء على الأغلب المنصاع، والإلقاء بالبقية في سلّة الشاذّ الذي يُحفظ ولا يقاس عليه. بل الأمر عنده في الوقوف على المكوّنات الأولى للّغة باعتبارها ملَكة مشتركة بين النّاس جميعًا - بقطع النّظر عمّا تفرّع عنها من ألسنة - لا يُخفي ما يقوم بينها من فروق بحكم الشعوب وثقافاتها وتواريخها، البنية الأصلية الأساسيّة التي لا يخلو منها لسان من الألسنة، تبدأ سلسلة

المؤلفات التي تتناول نحو اللّغة العربية بسنة 1505، وهي السّنة التي ظهر فيها مطبوعًا بالقشتاليـــة نحو للعربيّة لبيدرو دي ألكالا (Pedro de Alcala)، وعنوانه:

Ante para ligeramente saber la langua araviga

وترجمته : "طريقة (فنّ) لمعرفة اللّغة العربية معرفة رقيقة"

كما يشير إلى أوّل نحو للعربيّة باللغة اللاتينية، قريب جدًا ومتكئ على الأنحاء الموجودة عند العرب بالعربية قام به الفرنسي "غليوم بوستال" (Postel Guillaume)، وقد كان عارفًا بلغات عدّة، وعنوانه "Grammatica arabica" والغالب على الظنّ أنّه ألّفه سنة 1538 أو 1539. وكان يدرِّس في الآن نفسه الإغريقيّة والعبريّة والعربيّة. وكانت أوّل ترجمة إلى اللاتينية لنحو مكتوب بالعربية هي ترجمة "بيتركرسْتن" (Peter Kirsten) لمقدّمة ابن داود، ابن آجرّوم سنة 1610، وقد ظهرت مع الترجمة طبعة جديدة للنّص الأصل.

وفي نفس السّنة نشر جان بابتيست ريمون (Baptiste Jean-Raymond) الترجمة اللّاتينيّة لكتاب التّصريف للزّنْجاني.

وأوّل نحو للعربيّة نُشر باللاتينيّة في أوروبا كان بيد المستشرق الهولندي "توماسْ فان إرب" (Thomas Van Erpe) سنة 1613، وقد كان أستاذ اللغتين العربية والعبريّة بجامعة ليد. وقد أقام في هذه المدينة مطبعة عربية، أصبحت في ما بعد مشهورة. وفيها طبع مقدّمة ابن داود، ابن آجرّوم، ونشر في

السّنة نفسها ترجمة لاتينية لكتاب عبد القاهر الجرجاني "العوامل المائة"، مع النّص العربيّ.

ثمّ تسارعت وتيرة التّأليف باللاتينيّة، وبعض الألْسنة الرّومانيّة ففي سنة 1795 نشر "لُوكُنت دي ڤولني" " Le comte de Volney في باريس" تبسيط للغات الشرقيّة، أو المنهج الجديد السّهل لتعلّم اللّغات العربيّة والفارسيّة والتركية، مكتوبة بحروف أوروبية".

ورغم أنّه لم يكن في عداد المُسْتعربين المعترف لهم بالتّمكّن، فقد أشارت الدّراسات إلى معطى طريف فيما فعل، يتمثل في طريقة تناوله للجذر في العربية والعبريّة. وتقوم هذه الطريقة على مصطلح النّساجة بأن قال بوجود "سدى" يتكوّن من حروف أساسيّة، و"لحمة" أو تطريز" من حركات قصيرة. أمّا الجذر وهو معطى قابل في ذاته للتحليل، فقد بقي عنده وحدة صمّاء، كونها مولّدة لبقية الأشكال، فالصّيغ. ونذكر هنا ما أكّده بعض دارسي اللّغة ومؤرّخي الفترات الحاسمة في تناول قضاياها، ونذكره لأنّنا نرى له علاقة بشيء تبنّاه "أندري رومان" فيما كتب، عن "إنشاء المعجم في العربية: إمكانات التّسمية وحدودها في لغة بشريّة طبيعيّة"، المطابع الجامعية في ليون، 1999، 247 صفحة. لقد أكّدوا – وهم يقلّبون النّظر في تاريخ مفهوم "الجذر" – أنّه سيطر على دراسته، من 1505 مع بيدْرُو دي ألْكالا، إلى سلفاستر دساسي (1831) (A.I.Silvestre de Sacy)،

نمط من التّحليل يجعل من صيغة الفعل المرفوعة إلى ضمير الغائب المفرد (كـ. تـ.ب) الجذر الوحيد الممكن. ولم يتغيّر الأمر إلاّ سنة 1823 ذلك أنّنا ندين " لفرانْز بُوبْ" (Franz Bopp) (1791ـ1867) بتقطيع استوحاه من السّنسكريتيّة، يقترح للعبريّة أصْلاً من ثلاثة حروف مجعولة للدّلالة المعجميّة، بينما تقوم الحركات بعبء التعبير عن العلاقات النحويّة. وفي هذه النقطة يلتقي أندري رومان مع "بوب"، مع ما سمح له تأخّره في الزّمن من ضروب التّدقيق والتّنسيق والتّأنّق في بناء المنوال.

فهو يَعدّ - في الكتاب المذكور آنفًا - أنّ مغامرة اللّغات بدأت في ما يبدو في الوعي الجديد بالزمن الذي توافر للإنسان الأوّل، وفي قدرته على توأم ذلك، وهو الوعي بالتقاليب الزوجيّة. ويرى أنّ هذه المغامرة لا تزال بيّنة في اللغة العربية التي دخلت التاريخ في القرن السّادس ميلادي، كونها لغة قديمة، سرعان ما ثبّت القرآن صورتها، وربّما تعطّل لذلك تطوّرها.

ويبدو له أنّ العربيّة اللّغة الوحيدة التي احتفظت بنظام مقطعيّ، يتكوّن من مقطعين فقط: مقطع منفتح، وهو يتكون من حرف وحركة، أو بلغة اليوم بصامت وصائت، ومقطع منغلق، ويتكوّن من حرف فحركة فحرف.

وهذا النّظام المقطعيّ هو بالتأكيد نظام العربيّة المقطعي الأوّل، وبالفعل، فقد تحكّم في النّظاميْن المكوّنين لها، وهما النّسقان المكوّنان لكلّ اللّغات البشريّة: نظام التسمية الذي

يسجّل العالم، وما فيه، ونظام التّخاطب الذي يقيم بين وحدات التّسمية التي وقع إنتاجها العلاقات الزوجية التي تحدُث فيها التقاليب التي تقوّل بها العالَم.

وهذان النّظامان يدلاّن بصفة قطعية على أنّ النّظام المقطعي المذكور هو النظام الأصلي في العربيّة.

وبعد كلّ هذا التحليل نصل إلى النقطة التي تعقد الصّلة بين "رُومان" و"بوب"، وذلك عندما يذهب إلى أنّ نظامي التّسمية والتخاطب قاما على تفاصُل مجموع الحروف ومجموع الحركات في تفعيل اللغة وإجرائها من النظام المقطعيّ. وهذا التّفاصل هو قاعدة نظام اللغة العربية، وأساسه. فاللغة - وهي تستغلّ هذا التّفاصل - استطاعت أن تُعلّق وظيفة التّسمية بالحروف، وقد استعملتها باعتبارها العناصر التكوينيّة الوحيدة لجذورها، وعلقت وظيفة التخاطب بالحركات القصيرة التي دقّقت العلاقات المجرّدة المكوّنة لنظامها في التخاطب، وجسّدته.

هذا وجه من وجوه التأثر والاستفادة من الجهود السّالفة في معالجة أبنية اللّغة ومكوّناتها. وسنرى في هذا المقال مواطن أخرى أهمّ ممّا ذكرنا في معرفة أصول تفكيره النحوي، وطريقته في بناء نظام اللّغة العربيّة.

بعد استعراضه لبعض هذه الأنحاء بلغات مختلفة، يصل إلى محطّة سُيوليها من الاهتمام أضعاف ما أولى كلّ الأعمال السّابقة عليها، بل إنّ هذه الأعمال لم تنل من الشروح والتعاليق

إلا يسيرًا، في حين نراه يسهب في التعريف بهذه المحطّة، ويتوسّع في شرح منطلقات مُمثّلها اللّغوية والفكرية، وينوّه بجهوده الكبيرة في خدمة اللغة العربية، ويشير إلى أهمّ مؤلفاته التي تتّصل مباشرة بما هو فيه، ويمثّل هذه الفترة المستشرق سلْفستر دساسي.

وينطلق "رُومان" من طريقته الفذّة في تلخيص أعمال من جاؤوا قبله، والاعتراف بفضلهم على ما سيعتزم القيام به من أعمال، هو الشاب المتحمس الذي كان يافعًا عندما انطلقت ثورة فرنسا سنة 1789. وكانت اللّغات الشرقيّة تدرّس، وهو في فترة المراهقة، في مدرسة تابعة لمعهد " لوي لو ڤران".

(Louis le Grand) و"الكوليج دي فرانس" (Collège de France) وهذه المدارس ملكية، والمؤسستان الأخيرتان من أهمّ مؤسسات التعليم في فرنسا إلى الآن.

في تأليفيّة تدلّ على نباهة عالية، وعلى سعة اطّلاع نادرة، يشير إلى كثرة ما ألّف في نحو العربيّة إلى زمانه، مكتفيًا بذكر أوّلها باللغة القشتالية، سنة 1505، وذكر باكورتها بالفرنسية سنة 1538، ولم يحرجه أن يذكر أنّ فيما كتبه الفرنسي "غليوم بُوسْتال" وجوه نقص عديدة. ويرى أنّ كلّ هذه المؤلفات صنفان: يضع في الصّنف الأوّل كلّ الأنحاء التي اتّبع مؤلفوها – إن قليلاً وإن كثيرًا – نمط تأليف النحاة العرب ومنهجهم. وذكر عددًا من المؤلفات – على سبيل المثال، وطليعة الصّنف الثّاني

نحو العربيّة الذي وضعه - "إرْبنيوسْ" (Erpenius)، الذي نُشر أوّل مرّة سنة 1613، وما أتبعه من أصول ومفاهيم نُشرت أوّل مرّة سنة 1620. وهذان الكتابان اللّذان خرج فيهما مؤلفهما عن طريق النّحاة المشارقة، اتّخذا نموذجًا اتّبعه أغلب الذين ألفّوا في النّحو العربي، ونشروا ما ألفّوا في القرنين السّابع عشر والثامن عشر. ولكن لم يستطع أيّ مؤلف منهم توسيع عمل هذا المستشرق الفذّ، أو تحسينه والزيادة عليه، رغم ما أضافوه من ملحوظات إلى ما كان قال.

ولكنّه يخصّ بالمزيّة من بين الكتب التعريفيّة الكثيرة التي نُشرت في نهاية القرن الثامن عشر النّحوَ الذي وضعه بالألمانية في فـيينّا عام 1796، الأستاذ "م. ج يان" (M.J.Jahn)، الذي كان في ذلك الوقت أستاذًا في جامعة تلك المدينة" ومن مظاهر احترامه لهذا العالم المتوفّى سنة 1817، كتابة مقال عنه في المجلّد 21 من "التّراجم العالمية قديمها وحديثها".

ويحدّثنا "رومان" عن نشأة "دساسي" الأولى بكثير من التفصيل والدّقة، حتى إنّه رأى في المحيط الذي نشأ فيه، والأمكنة التي كان يتردّد عليها لإصابة بعض الرّاحة، سببًا عَطَف قلبه على الاستشراق.

والغريب في الأمر أنّه لم يتوجّه إلى الأستاذ الذي كان يدرّس العربيّة في الكوليج دي فرانس، بل توجّه إلى أستاذ اللغة التركية والفارسيّة الذي اعتذر عن القيام بدرسه؛ لعدم وجود

طلبة يرغبون فيما يدرّس. فاتّجه صاحبنا لإتمام ما حصل له من علم عن طريق القراءة، إلى بعض من قضّوا مدّة طويلة في المشرق، يطلب منهم نصائحهم.

ويهمّنا أن نشير- قبل الاسترسال في تصوّره لقضايا اللّغة، والنّواميس المحيطة باستعمالها الضرورية لتعلّمها - إلى شهادات ونصوص، وجدناها في كتاب رفاعة رافع الطهطاوي "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" (ضمن د. محمود فهمي حجازي، أصول الفكر العربي الحديث عند الطّهطاوي، مع النّص الكامل لكتابه" تخليص الابريز، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة 1974).

فقد ذُكر في خمسة مواطن بهذه التسمية "البارون سلوستر دساسي"، وحدّثنا عن رأيه في علمه، وأثبت في كتابه – وربما هذا أهمّ رسالتين بالعربية، بعث بهما إلى الطّهطاوي. وسنكتفي بنموذجين: شهادة فيه من صاحب الكتاب، ورسالة من الرّسائل التي بعث بها إليه.

يقول ص 218 من الكتاب المذكور:

"ومع ما يتراءى أنّ الأعجام لا تفهم لغة العرب إذا لمْ تُحسن التّكلّم بها كالعرب، فهذا لا أصل له، وممّا يدلّك على ذلك أنّي اجتمعت في باريس بفاضل من فُضلاء الفرنسيّة، شهير في بلاد الإفرنج بمعرفة اللّغات المشرقيّة، خصوصًا اللّغة العربية والفارسيّة، يُسمّى البارون سلوستر دساسي، وهو من أكابر

باريس، وأحد أعضاء جملة جمعيّات من علماء فرنسا وغيرها، وقد انتشرت تراجمه في باريس، وشاع فضله في اللغة العربيّة، حتّى إنّه لخّص شرحًا للمقامات الحريريّة، وسمّاها مختار الشروح، وقد تعلّم اللّغة العربية على ما قيل بقوّة فهمه وذكاء عقله وغزارة علمه، لا بواسطة معلّم، إلاّ في مبدأ أمره (...)، غير أنّه حين يقرأ ينطق كالعجم، ولا يمكنه أن يتكلّم بالعربيّة إلاّ إذا كان بيده الكتاب(...)".

يقول ص 325 من الكتاب نفسه:

" فمن كاتَبني عدّة مرّات مسيو دساسي.. ولنذكُر لك بعض مكاتيبه، فمنها ما كتبه باللغة العربيّة، ومنها ما كتبه باللّغة الفرنسيّة.

صورة مكتوب منه:

من الفقير إلى رحمة ربّه - سبحانه وتعالى - إلى المحبّ العزيز المكرم، والأخ المعزّ المحترم، الشيخ الرّفيع رفاعة الطّهطاوي - صانه اللّه عزّ وجلّ - من كلّ مكروه وشرّ، وجعله من ذوي العافية وأصحاب السّعادة والخير.

أمّا بعد، فإنّ القطعة الّتي أكملتُ المطالعة فيها من كتابك النّفيس، وحوادث إقامتك في باريس، رَدَدْتُها إليك على يد غلامك، ويصلك صُحبتها حاشية منّي على ما تقوله في باب تصريف الفعل في لغتنا الفرنسية، فإذا نظرتَ فيها تبيّن لك صحّة ما نستعمله من صيغة الفعل الماضي، فمن الواجب عليك أن

تصنّف كتابًا يشتمل على نحو اللّغة الفرنسية المتداولة عند أمم أوروبا كلّها، وفي ممالكها؛ حتّى يهتدي أهل مصر إلى موارد تصانيفنا في فنون العلوم والصّناعات ومسالكها، فإنّه يعود لك في بلادك أعظم الفخر، ويجعلك عند القرون الآتية دائم الذّكر، ودمت سالمًا.

كتبه المحب سلوسترس دساسي. انتهى.

إنّنا لم نخرج عن المسائل اللّغوية في النّصين، ففي النّص الأوّل شهادة حيّة ومعرفة مباشرة، ذكر فيها الطّهطاوي علم الرجل، وتوقّد ذهنه؛ حتى حصلت له العربية دون معلّم، أو يكاد، ومن المفيد أنّ الطّهطاوي لم يسكت مجاملة عمّا يبقى أمارة على أنّ متكلّم تلك اللغة ليس ممن نُشؤوا عليها. فمع علمه، بقيت به لَكْنة وعجز عن الارتجال. وهذا الأمر يكاد يكون قاعدة، لاسيما في مسألة اللكنة، تشمل من تعلّم لغة غير لغته، أمّا الارتجال فمسألة أخرى.

والرّسالة فيها وعي بالفرق بين الألسنة في بعض التّصاريف، وإن كانت تجمع بينها بعد ذلك قضايا عامّة، وتصوّرات مشتركة، توحّد بينها في الكثير من إجراءاتها، كما سنرى لاحقًا.

وقد ذكر "رومان" أنّ هذا الرّجل كان لا يدّخر جهدًا لاكتشاف ما لا يعرف، وكان كذلك لا يتوقّف عن الكتابة، حتى إنّ المهتمّين بترجمته أحصوا في مخلّفه 434 عملاً، أوّلها خرجَ للنّاس سنة 1780، وآخرها -وقد كاد لا يُتمّه - ظهر سنة 1838.

وطبعًا لايهمّنا فيما نحن فيه إلاّ ما اتّصل منها مباشرة باللغة العربية، نحوها وصرفها وأصواتها وإيقاعاتها، وأبسط السّبل لتعليمها من يتكلّمون بغيرها.

ومن أهمّ مؤلفاته في هذا المضمار، ننقل عناوينها إلى العربية، كما يلي:

ـ مبادئ النّحو العامّ على قدر ما للأطفال من طاقة، ومن شأنها أن تُستعمل مدخلاً لدراسة كلّ اللّغات.

ظهر هذا المؤلف أوّل مرّة سنة 1799، وآخر مرّة سنة 1975.

ـ كتاب في العروض وأوزان الشّعر العربي.

وكان هذا التّأليف فتحًا مبينًا في أوطان لم يسبق لأهلها أن قاموا بمثل هذه المغامرة، فكان هذا الكتاب فتحًا لآفاق جديدة في الاختصاص والتأليف.

ـ المنتخب المُفيد من أدب العرب، شعره ونثره.

وهو عبارة عن "زهر الآداب وثمر الألباب"، على حدّ ما سمّى إبراهيم الحصري القيرواني كتابه. وقد ظهر أوّل مرّة سنة 1806. وظهرت منه طبيعة ثانية سنة 1826. وقد حمله هذا المنتخب على نشر كتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفع، سنة 1816، مع شروح وتعليقات، ونشر سنة 1822 مقامات الحريري.

ـ مختارات نحويّة عربيّة، أو نصوص مختارة من آثار النحاة واللغويين العرب،

وقد اختار فيه من الكتّاب لسيبويه، ولابن هشام، والزمخشري، والبيضاوي، وابن خلدون... كما نشر سنة 1833 ألفية ابن مالك، وهي جمّاعُ قواعد النّحو.

ـ النّحو العربي

نشر الكتاب مرّات، صدرت الثالثة منها في تونس في جزأين بين 1904 و1905، بعناية أحد المسؤولين الفرنسيين عن التعليم في عهد الاستعمار هو "ل. ماشول"(L.Machuel)، وله هو نفسه تآليف، منها كتاب عن اللّهجة التونسيّة. وصدرت الطبعة الأولى من الكتاب سنة 1810، وقد ألّفه استجابة لرغبة من القائمين على التعليم، بأن يؤلف كلّ مدرّس لغة كتابًا بالفرنسيّة، تسهيلاً - في ظنّهم - على التلاميذ، وقد وضع هذا النّحو أمام تلامذته في القسم، وبمشاركتهم بصيغة من الصّيغ، ودامت المسألة عشر سنوات.

استطردنا إلى كلّ هذا، لأنّنا نعتقد أنّ لهذا الرّجل "في" أندري رومان" تأثيرًا بعيدًا حيث استمالته فيما صنع الرّجل نواح عديدة، وأعانه تأخّره الزّمني، والانفجار الهائل الذي حدث في العلوم اللغويّة بفروعها كلّها، على التّفطّن إلى ما لا بدّ من استدراكه عليه، لما فيه من تقصير سببه المعرفة التي متح منها "دساسي"، التي كانت تتحرّك في أفْق من الصّعب على المرء - مهما أوتي من ذكاء - أنْ يتجاوزه، ومن خلط بين الأمور، في زمن كانت العلوم متداخلة، والحدود بينها غير واضحة.

والأكيد أنّ فكرة مبادئ النّحو العامّ هذه، ستكون الجانب الأكثر إغراء "لرومان" في فكر "دساسي"، وهي التي دفعت به إلى أن يوليه كلّ هذا الاعتناء، حتى اعدَّهُ نقطة تحوّل هامة في التأليف النّحوي، لم يتمكن أغلب من جاء بعده، وإلى زمن قريب، من أن ينسجوا على منوالها، ويطوّروا مبادئها.

وفكرة النّحو العامّ غنمها " دساسي " من أهمّ الكتابات التي ظهرت في فرنسا في هذا الاتجاه كـ "النّحو العامّ الرّاشح عن العقل "لـ بـور روايـال (Port Royal)، والنّحو العـامّ لبوزي (Beauzée) و"التاريخ الطّبيعي للكلام والنحو الكوني" لكُورْ دجيبلن" (Court de Gébelin)

ولئن كان واعيًا بضرورة الاقتصاد، عند كتابة نحو للتّعليم، في النّظر الفلسفي، والابتعاد خاصّةً عن تناول اللّغات في هذه المؤلفات التربويّة - حيث نُطالب بأن يكون كلّ ما نقوله للمتعلّمين لا نقص فيه - تناولاً نظريًّا مُشكلاً، رغم ما قد ينال صاحب ذلك من رفعة، فهو حريص أيضًا على أن يكون في مقدّمة كلّ باب من أبواب النّحو، في المعنى الواسع للكلمة، ما يذكّر "بالمبادئ العامّة، والتعريفات المشتركة بين كلّ اللّغات، والقائمة على الأشياء في طبيعتها ذاتها، وعلى العمليات التي تقوم بها عقولنا".

ويبدو أن الفكرة الأساسيّة التي يقوم عليها النّحو العامّ، التي يتبنّاها "دساسي" و"رومان" إثْرَه، هي الفكرة نفسها التي

نجدها في ما يشغل الفلاسفة، عندما كانت الفلسفة تفكيرًا في الكون والوجود، ويقابلها في الفرنسيّة فعل "être"، وفي الإنجليزية "To be"، وذكرها الفارابي في كتاب الحروف، نقلاً عن أهل اليونان، باسم "الهست"، والقرابة بين ما قال وبين المقابل الفرنسي واضحة. وانتهى الأمر بالفلاسفة في هذه المسألة الأنطولوجية المهمّة إلى أنّ ما ترمي إليه اللّغة قد يكون أن تقول الوجود والكوْن. ومن ثمّ يكون النّحو العام المشترك بين اللغات آتيًا من هذا المشروع الكبير. وعلى هذا النّحو قد تكون كل لغة سوّت مقاسها، لتقُول الموجود والكائن، وكذلك محاكاة الكون والوجود، متى كان ذلك ممكنًا. ومن المفيد هنا أن نُشير إلى أنّ أحد كبار المختصّين اليوم في فرنسا في التاريخ للفكر اللّغوي واللّساني، وهو " سيلفان أورو"

(S. Auroux)، طرح في كتابه "الفكر، اللّغة والنّاس" السّؤال التالي: "هل هناك كلّيات لسانيّة؟" وانتهى إلى أنّ ما يطبع النحو العام، كونه محاولة يشترك فيها المسهمون في التأليف فيه اشتراكًا واسعًا، هو: "استنتاج المقولات النّحوية من نظريّة بسيطة في الحكم، يردّونها إلى البنية الخبرية "مُب هو خ" (S est P).

ولم يسْلَم هذا النّهج في اعتبار الأمور من بعض المبالغات، بل والهنات المشينة التي لا يمكن أن يقبلها العقل، ولا تقرّها أوضاع اللّغات، ولكنّها - وهذا من عجائب الأمور - تأتي مساوقة لأفكار مهمّة، ستعّمر في تاريخ اللغة، وربّما لا يمكن الاستغناء عنها في دراسة اللغات في كلّ زمان ومكان.

فهو لم يتبع "جيبلنْ" في ما ذهب إليه من مبالغات يصعب الأخذ بها، من قبيل ردّ المعجم، أو جزء كبير منه، إلى بعض الأصوات، كصوْتي الـ " O" و "U"، أو إيجاد علاقة بين المخرج الصّوتي، وجانب من المعجم: فكلّ الأشياء التي تميل إلى التقعير والتحديب والاستطالة، إنّما هي أصوات حلقية، بل منها ما هو من أقصى الحلق ...ولكنّه أخذ عنه أقسام الكلام نفسها الموجودة في النّحو العامّ، ويبدو ذلك جليًّا في عرضه لها في المبادئ التي هي كتابه الأوّل، الذي أشرنا إليه، في ما احتفظنا به منها.

كما أخذ عنه مفهومي "المادّة" و" الحدث"، وهما بلاشك محاكاة للطّبيعة، وهما الأشياء التي نفكّر فيها، أو - إن شئنا - هي مواضيع فكرنا، كالأرض والشمس والماء والحطب، وهذه الأشياء التي نسمّيها " مادّة" في العادة، أو الطريقة التي تكون عليها الأشياء، كأن تكون مدوّرة، أو حمراء، أو أجسامًا صلبة، أو أن يكون الإنسان عالمًا، وكلّ هذه نسمّيها حدثًا، وهذا هو الأصل للأسماء والصّفات، ولن يأخذ "رومان" هذا كما هو، وانّما أحدث فيه تطويرًا لا يُخفي أصله ومأتاه، إذْ قسّم الأمور قسمة ثنائية، سمّاها بالمصطلح اللاتيني "res"، أي الأشيـــاء، و"modus" الكيفيّة أو الوجه. ونصادف هذا في كلّ ما كُتب عن اللّغة، باعتباره مقدّمة المقدّمات التي تشترك فيها اللغات، مهما كان بينها من اختلاف، بعد ذلك يقول في بداية كتابه " إنشاء

المعجم في العربيّة": "وفي الخلاصة، يبدو أنّ الإنسان وهو "مبدع التقاليب"، تصوّر في لغاته أشياء (des res) وكيفيات أو وجوه (des modus)، "أشياء" أي وحدات لغويّة، تصوّرها خارج الزّمن، أي باعتبارها غريبة عن الزمن، بمعنى أنّ الزّمن ليس مكوّنًا من مكوّناتها، مثال ذلك "رجل"، وكيفيات أو جهات أي وحدات لغويّة، تصوّرها مرتبطة بالزّمن، كما لو كانت منخرطة في صيرورة زمنية ظاهرة للعيان، وأنّ الزمن مكوّن من مكوّناتها، مثال ذلك "عاش" أو "يعيش"، وبذلك تكون اللّغات كما لو أنّها عبّرت عن الزّمن باعتباره مكوّنًا يختصّ بالجهة والكيفيّة (modus) (الكتاب المذكور، ص14).

كما أخذ "دساسي" عن "جيبْلن" مفهومين رئيسين في انبناء الجُمل ووحدات الخطاب، في علاقتها بغيرها من الجمل المترافدة لأداء المعنى، وهذان المفهومان يبرزان علاقتين أساسيتين في اللّغات، لأنّهما تعكسان شيئًا ماثلاً في الطّبيعة، وفي كلّ بناء أقامه الإنسان، وهو: علاقة التساوي الأفقيّة التي تسوّي بين العناصر الماثلة عن طريق العطف، فتبدو الجمل – وإن كانت متضافرة على أداء معنى – مستقلّةً بعضها عن بعض، وليس لأحدها سيطرة على الأخرى، والعلاقة الثانية هي: علاقة التبعيّة، وتضمّ كلّ ما سمّاه النحاة العرب "التوابع"، وسمّاه الفرنسيّون – على سبيل المثال – بمفردة لها المعنى نفسه (La Subordination)، والعلاقتان ماثلتان في ما كتب "رومان"،

لم يغير منهمـــا شيئًا، وهمـــا في مصطلحه "La concordance" و "la dépendance"

وهو يتفق تمامًا مع "دساسي"، في كون " كلّ قواعد التّركيب ترتدّ إلى شيئين، إلى العطف أو التعاطف والتبعيّة".

ولكنّ تأخّر رومان الزّمني، ومعرفته بالتطوّرات الكبرى التي حدثت في دراسة اللّغة، والمناويل العديدة التي رشحت عن مدارسها واتجاهاتها، مكّنته من أن يرى وجه القصور فيما أقام عليه" دساسي" تصوّراته، وكيف أن اعتباراته النّظريّة لم تجد طريقها إلى التطبيق بصفة ناجعة، كذلك ما قام في ذهنه من جمع مغلوط بين قضايا الفلسفة وقضايا اللّغة. فثنائي الاستقلال والتبعيّة، أي الجمل المتساوية المعطوفة والجمل التابعة التي تكمّل جملاً مركزيّة، لم ينته عنده إلى بُنية "الجملة"، سواء كانت فرعيّة أو أساسيّة، فقد بقيت عنده على التّصور السّابق، مكوّنة متعلقاته من الصّفات والمخصّصات والفعل.

ثمّ إنّ ما غنمه من النّحو العامّ من افتراض، مؤدّاه أن اللّغات تنْبني على مفهوم "الكون والوجود"، لا يخلو من بعض العدول عن حقيقة الأمور. فمفهوم الكون ليس له فيما يبدو في اللّغات أيّ دالّ يدلّ عليه، بمعنى أن الكون والوجود ليس له في اللغات حكم المدلول، أي المعنى الذي تحمله إلينا آليّة من آليات اللّغة. فالقبول - إذن - بفعل الكون مصدرًا قائمًا بذاته، ليس مجدْيًا من الناحية اللّسانية. فاللّغة العربية التي تشقّها من

طرفها إلى طرفها المقابل: متعيّن ‡غير متعيّن، يظهر فيها فعل الكون فعلاً عاديًّا، أي غير متعيّن، في حين أن كلّ الأفعال الأخرى في هذه اللغة متعيّنة.

وربّما لهذا السّبب، وبعد أن عاين "دساسي" ضروب الاختلاف بين اللّغات، شرع - مع احتفاظه بمبادئ النّحو العام - في كتابة نحو اللّغة العربيّة على نهج العرب في كتابة نحوهم.

ولم يدّخر "رومان" جهدًا في تقريظ هذا النّحو الجديد الذي مَهّدَ بطريقة مدهشة بمبادئ النّحو العام، وبقراءته في المتون العربيّة، والنّصوص التي نشرها للأدباء والنحويّين - وهو جهد يبقى منقطع النّظير - إلى نحو جديد، ونهج جديد في كتابة المؤلفات النحويّة الموثقة توثيقًا باذخًا، بما أثبت من نصوص للكتّاب والنحاه استقاها من المطبوع والمخطوط الذي كان بإمكانه الوصول إليه، وبما قدّم من تعليق على الأمثلة، فيه كثير من العلم والأناقة.

ومع ذلك أسفَ أن صاحب هذا الجُهد لم تحدّثْه نفسه بأن يصنع من كلّ ذلك خلاصة، تكون فيها التقاليد النحويّة العربية طرفًا مهمًا، وهي خلاصة تكاد تكون في الحقيقة مستحيلة.

وأشار في هذا الصّدد إلى مسألة أثيرة لديه، ولدى بعض طلبته الذين أشرف على أطاريحهم في جامعة ليون II ، وهي مسألة أقسام الكلام، وهي المدخل المشترك بين التقاليد النحوية جميعها إلى نظام اللغات العام.

وربّما قد غرّ "دساسي" اعتراف النحاة القدامى بهذه القسمة الثلاثية، وهي الفعل والاسم والحرف، أو الأداة، وكأنّما الاعتراف بذلك مأتاه أنّها صورة للعالم: "الكائن"⟵الاسم، و"ما يحيط به الزمان أو يدلّ على الزمان" ⟵الفعل، وبينهما الرّباط الضروري التي تحمله الأداة، وبكونها رباطًا، فهي تختلف اختلافًا أساسيًا عن الفعل والاسم. إلاّ أن العارف بدقائق النّحو العربيّ يدرك أنّ هذه القسمة الثلاثية تقريبيّة وخاطئة. ذلك أن الزّمن في العربية – مثلاً - لا يؤدّيه الفعل وحده، والأدوات ليست دائمًا مقتصرة على الرّباط، وردم الفجوة بين الاسم والفعل.

ويتواصل النّقاش حول هذا التّصوّر الذي لا يحيط باللغة إلاّ من بعض أجزائها، ويُرجع "رومان" هذا "الأخذ والردّ" إلى ما في النّحو العام، الذي تبنّى ما تقوله الفلاسفة، دون مراجعته. فهم يقولون إنّ أذْهاننا تقوم بثلاث عمليات، هي: التمثل والحكم والتفكير(Concevoir ;juger ;raisonner)، والرأي عند "رومان" أن اللّغة لا تتمثّل، والتمثّل سابق اللّغات، وقبل التّسمية، حتّى ولو كانا يمتثلان لنفس الإجراء الزوجي، ويتطوّران بالتوازي. إنّ التمثل غريب عن نظام التّسمية في اللغات، وكذلك - وبنفس القدر - تكون نظريّة الدّال - كما وردت في "منطق بور روايال" - غربية عن انبناء اللّغات. وقد وجد سندًا قويًّا في هذه المسألة الأخيرة عند ميشال فوكو، الذي كتب مقدّمة " النّحو العام..."

لـ"أرْنو" و" لانْسُلو" (A . Arnauld ; C .laucelot)، فقد ذكر فوكو " أنّ المسكوت عنه عند المؤلفين، إنّما هو نظرية الدّلالة والكلمة، باعتبارها حاملاً لتلك الدلالة". ويضيف "رومان" إلى ما قال فوكو: إنّ اللّغة لا تحيّن "نظريّة الدّلالة"، وإنّما تحيّن نظامًا ما في التسمية.

وسيُواصل "رومان" استعراض الأنحاء الكثيرة التي جاءت بعد "دساسي"، والتي استفادت من علمه، كما استفادت من أخطائه. ونرجو أننا - بهذا القدر - حاولنا أن نبرز المكوّنات الأولى لتصوّره اللّغوي، ومذهبه الفذّ في كتابة النّحو، ودفاعه المستميت عن نهج في تنظيم عالم اللغة، وفي الوقوف على النّواميس الخفية وراء القواعد البسيطة التي تعرض على أنّها قانون اللغة وجمّاعها، في حين أن المسألة عند صاحبنا أعقد من ذلك بكثير.

خاتمـــة

رغم أنّ أندري رومان لم يشتهر شهرة مجايليه من المستعربين في فرنسا، مثل الأستاذ أندري ميكال، على سبيل المثال، وذلك لأسباب يعرفها الذين اطّلعوا على الحياة الفكريّة والثقافية في فرنسا، وتمركزها في العاصمة باريس، ولا سيّما في اختصاص كالعربيّة، وما راكمَ من تقاليد قوّتْ تلك المركزيّة. زد على ذلك أنّ الرّجل رغم تعدّد المجالات التي تحرّك داخلها - غلبت عليه الدّراسة اللّغوية، واختار أن تكون في أدق مكوّناتها، وأكثرها استعصاء على الأفهام، حتى انحسرت دائرة قرّائه، ولم نجد لها صدى إلاّ في أوساط المختصيّن غاية الاختصاص، وهم فئة قليلة.

رغم ذلك، لفتَ إليه الانتباه منذ زمن مبكّر لما وطّن عليه النفس من عمل متواصل، وبحث دؤوب، وفرضيات يدفع في سبيل إثباتها أو دحضها كلّ وقته، حتّى غلبت عليه في حياته اليوميّه مظاهر الجدّة المفرطة أحيانًا، والحرص على عدم إضاعة الوقت فيما لا ينفع.

ولكن طفا اسمه عندما أصبح مدرّسًا في جامعة آكس آن بروفانس، وأصبح ممّن يُعتدّ بهم في ما يقوم به عندما التحق

بجامعة ليون II فجمع إليه ثلة من خيرة الأساتذة، وبنى علاقات علمية مع كثير من الجامعات العربيّة، وجامعته الأصل، جامعة القديس يوسف، وجامعات شمال أفريقيا، وبعض الجامعات في المشرق العربي، فنشطت بفضله حركة تبادل الزّيارات العلميّة، وفتح المجال لمن برزوا من تلك الجامعة بالإقامة في ليون للتدريس، لمُدد قد تكون سنة أو سنتين، كما كان وراء كثير من التّعاون بين فرق البحث المتقاربة في الاهتمام هنا وهناك، وأخذ على عاتقه الإشراف على بعض الأطروحات في جامعات الرّاغبين بالاشتراك أو دون اشتراك.

وممّا يمتاز به صاحبنا هذا حبّه العميق للّغة العربيّة، وطرحها في شأنها فرضيات، لا فقط تفسّر استمرارها، في حين اختفت اللّغات القديمة التي واكبت مسيرتها في حقبة من الحقب، ولكن ليجعل منها "نسق الأنساق" للّغات السّامية جميعها، معتبرًا كونها اللّغة التي نرى فيها، ولا نرى في غيرها، صورة اللغة الأولى، التي تؤكد للباحثين أنّ اللغات جميعها ترتدّ إلى بُنية أصل وراء الامتدادات والتفرّعات التي يبنيها التاريخ، وتبنيها الثقافة.

ومن مظاهر هذا الحبّ إقدامه على كتابة مقالات علمية فيها، فلقد أحصينا في قائمة أعماله ما لا يقلّ عن سبعة أعمال بالعربيّة، ومنها ما هو في عشرين صفحة لاعوج فيها، ولا إمكان لإبداء أيّ ملحوظة، إلاّ أن تعجب لجمعِهِ بين دقة المسألة

التي يخوض فيها، ونحته الجملة على ما تقتضي الفكرة، مع حسن اختيار اللّفظ المناسب، وبعض التأنّق أحيانًا.

وأكثر من هذا في الدّلالة على ما تقول، وهو أمر لا نعرفه لغيره من زملائه من مجايليه، أو من الجيل السّابق، وقد عرفنا كثيرًا منهم، اهتمامه بالترجمة من لغته الأم إلى اللغة العربية، ونشر ذلك في كتاب أشرنا إليه، فلا نبالغ إن قلنا: إنّه في الاستشراق بدعة من البدع.

وليسمح لي القارئ الكريم أن تكون خاتمة كلامي عنه الإشارة إلى ما كان بيننا، على فارق السنّ، من مودّة واحترام، وأن أذكر ما كان يحيطني به من تبجيل في كلّ مرّة نزلت في جامعة ليونII ومدينتها.

نماذج من تفكيره اللّغوي من نصوص كتبها باللغتين الفرنسية والعربيّة

كلام الإنسان ليس كلامًا بالصّدفة، إنّه يتجنّب الصّدفة، بل إنّها مُتواصلةٌ من اللقاءات المتفق عليها بين المتحدّثين.

ولا يمكن لكلام يأتي عن اتّفاق، أن يخرج كُلّيّة عن الضّوابط، كما هو الشأن في الصياح الذي يعبّر عن تجربة الحاجة والرّغبة والانفعال. وهو يعبّر عن هذه التجربة بصفة مطلقة، ولا علاقة له بأي صوت آخر من الأصوات التي تعبّر عن تجارب أخرى.

إنّه يجهلها كما يجهل بالمقدار نفسه مكوّنات التجربة التي ولّدته، وظروفها، ولا قدرة له على التمييز بين أي عنصر من عناصرها. فهو يعبّر عن تجربة ما بالجملة، فصياح الألم لا يُعبّر إلاّ عن الألم.

ولذلك، فالتجارب المختلفة - وإن اختلفت بمُعطى واحد من معطياتها - تقع الإشارة إليها بأصوات ليس بينها شبه دال. ويبقى أنّ هذا الشبه الممكن الذي يحاكي في الظّاهر شبه التجارب الّتي إليها يشير، لا يمكن الاعتداد به، ذلك أن الاعتداد بذلك لا يكون إلاّ إذا كانت الأصوات منتظمة في بناء.

على هذا النّحو تكون لغة الأصوات والصّياح جُملةً متناثرة،

لا ائتظام لها من الأصوات، وقع ائتمان الذاكرة عليها في فوضاها.

ثمّ إنّ كلّ صوت، من ناحية ثانية، لا وجود له إلاّ في اللحظة التي يصدر فيها خارج الزّمن التّاريخي.

فصرخة ألمٍ لا تقول إلاّ ألمًا حاضرًا، وليس في إمكانها أن تقول ألمًا ماضيًا، كما لا يمكنها أن تقول ألمًا آتيًا.

الصّرخة لا تنخرط في الزّمان، ولا تتحقق باعتبارها لحظة من التاريخ، والذّاكرة التي تشدّها ليس في وسعها أن تهيئها لمعانقة التاريخ.

ليست ذاكرة تركبُ مغامرة الأسئلة.

من الواضح الجليّ أن لغة الإنسان ليست لغة أصوات وصيحات، وإن اشتملت على بعض أوجه التعجب والاستغراب والمحاكاة، وكلّها يمكن اعتبارها، بشكل من الأشكال، صياحًا وأصواتًا تحت السّيطرة.

من ثمّ تتعيّن الفرضية التي قد تكون بموجبها لغة الإنسان بناءً (مبنيّة).

وإذ ذاك من أين يكون من المناسب الدخول إلى دراسةُ بنيتها؟

تكون البداية ما قبليًّا بدراسة أجزائها ذات المظاهر المبنيّة: دراسة ألفاظها التي تصّرف، ويلحقُها الإعراب، وتترابط. إلاّ أنّ

دراسة هذه المظاهر لم تعطنا إلى الآن خُطاطة عامة، يعني ذلك أنّ الأنحاء التي وقع وضعها على أساس التصريف والإعراب والترابط والتحليل المنطقي هي لا شك جماع قواعد، ولكنّها في الوقت نفسه جماع معطيات تفلت من كلّ قاعدة.

ويلاحظ أن النحاة وعلماء اللغة فشلوا في بحثهم عن بنية الجملة، مع أنّها المكوّن الأهم للتركيب. وتقع الاستعاضة عن ذلك بأن المتكلّم في إنجازه الكلام يستجيب للاستعمال المخزّن في الذاكرة، أكثر ممّا يستجيب لقواعد التركيب.

فنحن إلى الآن لم نُقم علم تركيب تامّ البناء، بمعنى وجود نسق تواصل خاصّ باللغات.

فهل يكون للغات - عوضًا عن ذلك - نسق تسمية معروف ومعترف به؟

الأسماء في الفرنسيّة قلَّ أن كان ميلادها فرنسا. فالكثير منها من لغات أخرى معاصرة أو قديمة.

فمن الاسم اللاّتيني المنقول عن الاسم الإغريقي Akadêmia صنعت الفرنسية " académie"، وبلعبة اللواحق والزوائد صنعت عشرات الكلمات، انطلاقًا من هذا الجذر

⟵ الزاوائد هي انعكاس للأوليات التي كان الإنسان يكلف نفسه، انشاءها في ما للعالم من آليات mécanismes.

⟵ بما أن اللغات تقيم معجمها على الجذور، فإنّما

تحقق نوعين من المجموعات (في المعنى الرّياضي): مجموع مكوّن من الجذور مجموع مكوّن من اللّواحق في الفرنسية، وفي اللغات التي هي مثلها لغة تعتمد الجذور، ليس بين هذه الجذور واللواحق علاقات نسقية منظّمة.

فكلّ جذر مقطعي خاص ينتخب بعض اللّواحق دون غيرها، بسبب الأصوات المكوّنة لها، وبسبب تاريخها الفريد(الأنحاء والمعاجم تقدّم جردًا بما يتبع القاعدة بأوساع مختلفة وتقدّم لتكمله جردًا بالشاذ)

مثال ذلك railway ⟵ chemin de fer ثم اضطرت الفرنسية أن تشتق cheminot من الرأس المكون للمركب.

⟵ الأسماء المركبة، وهي دائمًا كثيرة العدد في معجم اللغات، تقطع الصّلة بالتسمية عن طريق الضمّ والزيادة، وهي الطريقة الوحيدة التي بإمكانها أن تسعى لتكون مقعّدة

(ويبرهن بأمثلة بين الإنجليزية والفرنسية على أن الأسماء المركبة لا يمكن أن تكون إلّا شاذّة. ومع ذلك فهي ضرورية، وتستجيب لحاجات في التسمية لا يمكن أن يوفرها أي نظام للتسمية؛ لأنّه محصور في حدود ضيقة هي الحدود التي يرسمها اللواحق والزوائد مثلاً).

إذن، لم يقع الحديث عن فرضية وجود خُطاطة عامة، كان بإمكانها أن تكون خطاطة اللغة العامة في بداياتها. لم يتحدّث بذلك لا النحاة ولا اللغويون، لذلك فمن غير الملائم - على ما

في الكلام من خروج عن السائد - أن نشرع مباشرة في اللّغة نفسها، بدراسة بنيتها. وبطبيعة الحال، فإن الأجوبة المتحصّل عليها من هذه الطريقة في التّناول تكون جزئية وغير كافية.

ولهذا بحث نُحاة، ثمّ علماء لغة عن مبدأ انبناء اللّغات، لا داخل اللّغات ولكن في الفلسفة أو في المدعّمات النفسية للإنسان، وما يحرّكها من طاقات، أو في خلّب بنية فكريّة تكون اللغات التي يتكلّمها الإنسان، هذه اللغات التي لا يضمُّ شتاتها قواعد مطردة، انعكاسًا لتلك البنية أو في المنطق بآخره.

(1ـ Antoine Arnauld + laude laucelot ؛ 2ـ Guillaume ؛ 3ـ شمسكي ؛ 4ـ Michel Leguern)

بعد استعراضه لبعض متاهات الفكر الفلسفي الذي بقي يتأرجح بين التوقيف والوضع، يطرح رومان السؤال المتعلّق بالنهج الذي يجب اتباعه للوصول إلى مبدأ اللغات وبدئها.

النهج الأخير الذي لا يزال مفتوحًا، يبدو أنّه نهج دراسة مجموعة الأبنية الممكنة ما قبليًا. والبناء الخاص باللغة مبدئيًا أن يكون من بين الأبنية الممكنة المعترف بها، بصفة تجريبية.

يبدأ كل بناء بالرّبط بين عنصرين، ولكي يكون هذا البناء الذي بدأ بالربط بينها مستقرًّا، لا بدّ أن يكون هذا الزوج المؤسس هو مستقرًا أيضًا.

وهذا يعني أنّه لا بدّ أن تكون العلاقة الرابطة بين العنصرين

المكوّنين لها مزدوجة الاتجاه (biunivoque)، ويستدعي المؤلف هنا استعارة قديمة هي استعارة الزوج المكوّن اجتماعيًّا وقانونيًا ذكرًا وأُنثى: لا زوج بلا زوجة ولا زوجة، بلا زوج.

أمّا العناصر الأخرى الرّاجعة إلى هذه العنصرين الذّريين، فلا تدعو إليهما نفس الضرورة. فيمكن للزوج والزوجة أن يدخلا في علاقة بأناس يخدمونهما، والعلاقة التي تربط هذا الطرف أو ذاك من الزوج الذي تحدثنا عنه، هي ببساطة علاقة في اتجاه واحد (univoque)، هي علاقة اشتراك أو تبعية، ويقابل هاتين العلاقتين في اللغة العطف والرّبط والتبعية (العطف يسوّى أفقيًا في اللغة والربّط والتبعية، (العطف يسوّى أفقيًا، والتبعية ترتب عموديًا، أو في مستويات ذات بنية، والتبعية ترتّب عموديًا أو في مستويات ذات بنية تشبه المصاطب)

وهذه العلاقات في الاتجاهين وفي الاتجاه الواحد، علاقات ثنائية، وتتقابل واحدتها مع الأخرى تقابلاً ثنائي الحدّ.

وأبنية وتوليفات أخرى، تبقى ممكنة، ولكنّها قد لا تكون ثنائية الحدّ، وإنّما قد تربط بالرابط نفسه أكثر من عنصرين.

والبشر الذين اخترعوا هذه التوليفات المعقدة، ثلاثية ورباعية... خلال زمنٍ طويلٍ بعد قيام اللغات، بينوا أن كلّ واحدة منها يمكن ردّها إلى التوليفة الثنائية الحدّ.

والتوليفة الثنائية الحدّ - وهي أولى التوليفات الممكنة – قوية، ولها من القوّة أنّها عُدتّ اليوم التوليفة المعمول بها في الإعلاميّة.

إنّها قوية جدًّا، وبسيطة أيضًا، ومن ثمّ أمكن للإنسان احتسابها في الحين. والحقيقة أنّها محايثة لقدر الإنسان.

فكلّ اختيار يقوم به الإنسان، وهو يعيش حياته، هو عملية فرز. وكلّ فرز يولّد مجموعتين: المجموعة المرشحة والمجموعة المقصاة. ولا يهدأ الإنسان عن الاختيار، وعن أن يكون موضوع اختيار.

وبالفعل، فهذا الانبناء الأليف، هذا الانبناء المزدوج البسيط، نقف عليه في تنظيم اللغات العام.

كما أن هذا الانبناء المزدوج يوحي بخطاطة الجُمل

[أمثلة من الفرنسية: « Pierre écoute » (بطرس يستمع)

فالعلاقة بين الاسم والفعل هنا علاقة مزدوجة الاتجاه، تشبه علاقة الزّوج بالزوجة، فلا يمكن أن يوجد الواحد دون الآخر.

Ecoute ⟶ imperatif

m' écoute le pronom n'est pas necessaire a la phrase

[« Pierre écoute »

ومن ثمّ، فخُطاطة الجمل - كما سطرناها بصفة مُجرّدة - هي مشتركة بين جميع اللغات. فكلّ الجمل المبنية مبنية على هذه الخُطاطة الثنائية الحدّ. فكلّ الجُمل، أي طرق العبارة التي

يتواصل النّاس بها بينهم، هي هكذا. إذن، تتقاسم الجُمل نظامًا واحدًا في التّواصل، فهو نظام كونيّ. بعد ذلك يذهب إلى ما تنفرد به العربية في نظام التّسمية. فلئن كانت اللّغة الفرنسية متولّدة عن لغات أخرى، فإنّ اللّغة العربية "الفصحى" يبدو أنّها ذاتية التولّد. فليس لها (معها) في ماضيها السّامي أي لغة أخرى.

ولا يتمّ حضور اللغات الأجنبية في العربيّة "الفصحى" إلاّ عن طريق الدّخيل والاقتراض الذي لم يستطع إلى هذا الوقت أن يؤثر في خطاطتها.

فلأنّ هذه اللغة دخلت حيّة في التّاريخ في القرن السّادس الميلادي، باعتبارها لغة قديمة جدًّا، ولأنّها لم يمض على دخولها ذلك وقت طويل حتّى استقرّ كيانها في صورة لن تُغادرها، في القرن السّابع بمجيء القرآن، فإنّها لا تزال تحتفظ إلى الآن بخطاطة قابلة للقراءة.

النّظام المقطعي في العربية ينبني على مقطعين، هما نفس المقاطع (حَف c ، حَرَv) و(حف c، حرv ، حف c)

وهذا الانقطاع والانفصال سمحا - منذ أن أمكن استعمال الحروف والحركات كلّ على حدةَ - أن تُسند أدوار مختلفة لهذا وذاك بصفة مطّردة. وعلى هذا النحو بنت العربيّة نظامها للتّسمية على التصرّف في تنظيم الحروف.

وهذا التصرّف في تنظيم الحروف هو الذي ولّد جذورا واضحة ومستقرة لوحدات التسميّة: الأسماء والأفعال.

أمّا الحركات، وهي مجموعة صغيرة متمّمة لمجموعة صغيرة مكوّنة من الحروف، فإنّ القصيرة منها استُعملت - عدا الحروف - دليلاً على الحالات الإعرابية.

وحركات الإعراب هذه هي الآلية الأساسية في نظام تواصل العربية " الفصحى". هذا الإطار الثابت المزدوج الذي ضبطناه على النّحو السالف، هو إطار خُطاطة طالما طورها الإنسان بالمقابلات الزوجية المتوالية حسب النهج الزوج الأليف لديه. وهذه الخطاطة التي لا تزال إلى اليوم قابلة للظهور في اللغة العربية، هي خطاطة اللغات السّامية، واكتشف عن طريق هذا التقابل المزدوج إمكانيّة وجود خطاطتين أخريين مزدوجتين: خطاطة مبنية على جذور مصوّت، وهي خطاطة عائلة اللغات المنغمة، كالصينية (الاختلاف في درجة ارتفاع المقطع مع الاختلاف في المعنى)، وخطاطة مبنية على جذور مقطعته الهندية الأوروبية....

نصّ أمدّتنا به عائلة صديق أندري رُومان

أستاذنا المرحوم عبد القادر المهيري

وهو من المخزّنات في حاسوبه، فلها جزيل الشكر.

(...) ونستنتج في هذا السّرد المقارن البسيط أن نون التّنوين لفظم منزلة تركيبية، فالاسم الّذي تقع في آخره هو اسم غير مضاف، يقابله الاسم الخالي من لام التّعريف ومن نون التّنوين،

وهو الاسم المضاف، فنون التّنوين ليست في حدّ ذاتها وضعيّة من الوضعيّات تمثّل طرفًا مقابلاً للام التعريف، وإنّما مقابلتها لها مقابلة فرعيّة، فنون التّنوين هي أصلا أداة تركيبية.

وإذا رجعنا إلى الاسم العلم، لاحظنا في أوّل الأمر أن الاسم العلم الحقيقيّ الذي لا يكون لقبًا، لا يقبل أداة التعريف، وأنّه يقبل التّنوين.

قال جرير من المنسرح

"لم تتلفّـع بفضْـل مئزرها دعدٌ ولم تُغذ دعدُ بالعُلبِ

فمن الجائز أن نقول إما "دعـْـدٌ" وإمّا "دعْــدُ" عندما لا نقف، و "دعْــدْ" عندما نقف، وهذا مصوّر في الشكل الثامن.

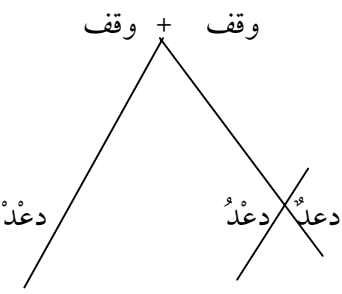

وإذا ألممنا بالأعلام العربية، وجدنا أنّ العلم الممنوع من الصّرف هو أقدم صورة من غيره، أي أنّ الحال التي ينمّ عنها "دعْــدُ"، أبعد في الزّمان من الحال الّتي صار فيها العرب ينوّنون الأعلام.

فالفرضية الجديدة التي سأحاول من الآن أن أحقّقها هي أنّ نون التّنوين لم يجُز لها سابقًا أن تدخل على الأعلام، لأنّ الأعلام كانت حينذاك عند العرب أسماء مضافة دائمًا.

أعني أنّ العلم كان مضافًا دائمًا، حتى ولو لم يكن المضاف مظهرًا، أي - بعبارة - أخرى إنّ العلم كان يتعلّق به دائمًا اسمٌ مضاف إليه مقدرٌ. والإضافة المقدّرة الّتي أفترضها أجعلها سمةً كانت تدل على أنّ الإنسان صاحب الاسم العلم كان مندمجًا في جماعة منظّمة.

لقد كتب كرستيان برومبرجي Christian Bromberger في مقالة صدرت في عدد خصّصته مجلة langages للاسم العلم، ما يلي:

"إنّ إطلاق الأسماء الأعلام على إنسان، عمليّة تكون قبل كلّ شيء عمليّة تنسيب للمجتمع، تقترن باحتفال أو مجموعة من الطّقوس، تختلف باختلاف المجتمعات والثقافات، تكرّس إدماج الفرد في الجماعة"

وهذا الذي ذكره برومبرجي أمر عالميّ نجده في كلّ الأمم والحضارات.

مثلاً، كتبَ جان هودراي Jean Haudrey في كتابه "الهنديّون الأوروبيّون" : لا يكون الفرد (الهنديّ الأوربيّ) إنسانًا تامًا إلاّ بفضل انتمائه المزدوج إلى نسبه، وإلى أمّة معاصريه"

وأمّا العرب، فعلم الأنساب عندهم علم له أهميّة كبرى، وحسبنا أن نستشهد بهذه السطور من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، حيث يوضح النويريّ علاقات العرب الوثقى والمتعدّدة بمجتمعهم:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ (13/49). ومعرفة أنساب الأمم ممّا افتخرت به العرب على العجم، لأنّها احترزت على معرفة نسبها، وتمسّكت بمتين حسبها، وعرفت جماهير قومها وشعوبها، وأفصح عن قبائلها لسانُ شاعرها وخطيبها، واتّحدت برهطها وفصائلها وعشائرها، ومالت إلى أفخاذها وبطونها وعمائرها، ونفت الدّعيّ فيها، ونطقت بملء فيها"

وها هي ملحوظات أخرى تُرجح الفرضيّة التي عرضتُها:

1) إنّ أعلام العرب ممنوعة من الصرف لعُجمتها، أي في رأيي لانتساب أصحابها إلى أمم أجنبيّة، تُضاف إليها أسماؤهم.

ب) إنّ أعلام النّساء أكثرها ممنوعة من الصرف، وقد تكون علّة ذلك مظهرًا من مظاهر حالهن الاجتماعيّة، هو خضوعهنّ لآبائهن، فلبُعُولتهنْ.

ج) إنّ أعلام الرّجال من العرب المنوّنة إذا تبعتها العبارة "ابن فلان" مُنعت من الصّرف، فنقول " زيْدٌ" ولكن

نقول زيدُ بن فُلان"، فما عسى في تركيب هذه الكلمات الثّلاث أن نعلّل به حذف نون التنوين؟

فـ "ابن فلان " فيها بدل من "زيْد"، ولكن "ابنُ فلان " هنا ذكر انتساب "زيْد" إلى أبيه، ويقوم هذا الذكر فيما أرى مقام إضافة معنويّة.

د) إنّ الأعداد قد تكون غير منوّنة، نقول "همْ ستةٌ. ولكن نقول" ستةُ ضعفُ ثلاثةَ وهذا عندي لأنّ العدد يصبح في العمليّات الحسابية أحد سكّان مجموعة خاصّة، هي مجموعة الأعداد الصّحيحة.

هـ) إنّ أسماء الأوزان شأنها شأن أسماء الأعداد إذ إنّا نقول "كلُّ أفعلَ يكونُ صفةً لا ينْصرفُ".

و) إنّ الاسم المنادى هو أيضًا لا ينوّن، نقول "يا زيْدُ"، و"يا أميرُ"، فننادي كائنًا يجوز نداؤه تحقيقًا أو مجازًا أي ننادي كائنًا مطلقِين عليه اسمًا من الأعلام، أو اسمًا نجعله من الأعلام، فلذلك لا تدخل أداة التّعريف على الاسم المنادى، فإنّ اللام التي نجدها بعد الحرفين المركبين " أيُها و" يا أيُّها" إنّما هي لام دالّة على سموّ الشخصيّة المناداة، هي لام إكرام.

ونقول: "يا أميرَ المؤمنين"، ونفتح الرّاء، مع أنّ منزلة "أمير" في ندائنا هذا هي ذات منزلة الاسم المرفوع في ندائنا " يا أميرُ"،

فالفرق الوحيد الملموس الواقع بين العبارتين، هو أنّ الاسم المرفوع غير مضاف، بيد أنّ الاسم المنصوب "أميرَ" هو مضاف.

فيظهر أنّ الرّفع هنا يلعب دوْرَ نون التّنوين، وأنّ النّصب المقابل له يقوم مقام علامة دالّة على علاقة الإضافة، فنقولك "يا أميرُ" ويا أميرَ المُؤمنينَ"، كما نقول: "فعلتُ ذلك قبْلُ" و"فعلْتُ ذلك قبْلَ يوميْنِ".

وقد نظم في هذا الموضوع ابن مالك أبياتًا موجزة:

واضمُم – بناءً – "غيرًا" إنْ عـدمْت مَا

لـهُ أُضيف نـاويـًا مـا عُـدمـا

قبـلُ كغيـرُ بعْـدُ حسْـبُ أوّلُ

إلى آخره.

وقد أسهب في نفس الموضوع عبّاس حسن نثْرًا في كتابه النّحو الوافي، كتب:

وقد يُحْذفُ المُضاف إليه، ويُنْوى معناه (أي: يُنْوى وجود كلمة أخرى تؤدي معنى المحذوف من غير أن تشاركه في نصّه وحروفه). وفي هذه الصّورة يلتزم الظرف المضاف البناء على الضّمّ، مثل:

" لمّا انْقطع المطرُ صفَا الجو بعْدُ" أي بعد انقطاعه أو بعد ذلك".

ز) فهذا ما نجده بالضبط في اسم مشهور، هو "بعْل بَكٌّ"، إذ يتركّب من اسمين، أوّ لهما اسم جُعل من الأسماء الأعلام، ونُصبَ على أنّه مضاف، وثانيهما اسمٌ علمٌ رُفع وهو غير مضاف، فنقول مثلاً: "بعلْ بكٌّ مدينةٌ من مُدُنِ لُبْنانَ"، فيبيّن أنّ ضمّة كاف "بــكٌّ" تكون في هذا السيّاق علامة رفع "بعْلَ بَكٌّ"، فإنّه مرفوع على الابتدائيّة، وعلامة كون " بعْلَ بَكٌّ " غير مُضاف، بل يُنصب " بعْل بكّْ" على أنّه مفعول به مضافٌ معًا في جملة كـ "زُرتُ بعْلَ بَكَّ لُبنان" وتظلّ كاف "بكّْ" منصوبة في جملة كـ "زرْتُ بعلَ بَكَّ اليومَ"، فلا التباس هنا، لأنّه جليٌّ أنّ الاسم الّذي يتبع " بعْلَ بَكَّ " ليس من الأعلام، أي ليس اسمًا يجوز أن يُضاف إليه اسمُ علم، بل جاز للنّابغة الجعْديّ أن يقول من الوافر:

"ألاَ أبْلغْ بني خلـفٍ رسـولاً أحقّا أنَّ أخْطلَــكُم هجاني"

فتُفتح كاف "بكّْ" أيضًا لعمل الأدوات الّتي سمّوها بحروف الجرّ، نقول مثلاً: "تمشّيْتُ في بعلَ بكّْ"، فلا التباس هنا كذلك، لأنّ "في" الجارّة أداة وظيفية تقدر بذاتها أن تُدْمجَ كلمة ما في جملة.

إنّ الكسرة التّي تقع في اللّغة العربية التأريخيّة آخر الاسم المشترك، هي حركة لا تنفعُ إلاّ قليلاً من حيثُ وظيفة الاسم، إذ إنّها حركة تظهر دائمًا كثاني عنصريْ لفظ متقطّع، فسواءٌ

أقلنا: "هذا في كتاب" أم: "هذا في كتابًا" فإنّ الحرف "في" ليس بحاجة إلى حرف "آخر يقترن به يُتمّه، وهو قد تمّ، فسواءٌ أقلنا: "هذا كتابُ تلْميذٍ" أم: "هذا كتابُ تلْميذًا" فإنّ حذف نون الاسم "كتَابُ" يعرّفنا بوضوح أنّ " كتاب" اسم مضاف وأمّا الاسم " تلميذ" فمرتبتُه من الجملة تعرّفنا بوضوح أنّه مضاف إليه، إذ يتبع المضاف مباشرةً، فإنّه يقبح في الفصحى أن يحول حائل بينهما، فقليلاً ما فصلوا بينهما إذ فصل بينهما شاعر مجهول في بيت من الطويل ركيك، تمثّل به الأزهريّ في تهذيب اللّغة، هو:

فرشْني بخيْر لا أكوننْ ومدْ حتي كناحتِ يومًا صخرةٍ بعسيلِ

إنّ الفصل هذا لا يعوق الفهم فالمضاف " ناحتِ" نُدرك أنّه مضاف، إذ حُذِفَتْ نونه، والمضاف إليه ندرك أنّه مضاف إليه، إذ خُفض، أي نجد في هذا البيت علامتيْن: علامةً تقع بالمُضاف، وعلامة تقع بالمضاف إليه: فمن البدهيّ أن علامتين اثْنتينِ تكفيان لتعيين علاقة وظيفيّة بسيطة كهذه، فرغْمًا عن هذا نجد في جملة كـ "هذا كتابُ تلْميذٍ "ثلاث علامات، هي: حذفُ النّون والخفْضَ والرُّتبةُ، أعني اتّصال المضاف إليه بالمضاف الّذي يتعلّق به، أي نجد في: "هذا كتابُ زيْدٍ" علامة زائدة، فما هي؟

هي في اللّغة التاريخيّة الرّتبةُ، فالنّظام الوظيفيّ التّاريخيّ يمكّننا من أن نقول بوضوح تامّ: " كناحتِ يومًا صخْرةٍ بعسيلِ" أو "هذا قلمُ وكتابُ تلْميـــذٍ".

فمن المرجّح أنّ الرّتبة لم تكن العلامة الزّائدة في حال من أحوال اللّغة سبقت ظهورها في التأريخ، بل أنّها أصبحت علامة زائدة لمّا جعلتِ اللّغة الكسرة من حركات إعرابها. أجَل أمكننا أن نقول - دون أن نُخلّ بالإبلاغ - "هذا كتابُ تلْميذًا"، إن أتبعنا المضاف بالمضاف إليه إتباعًا مباشرًا، إن اتّصل المضاف إليه بالمضاف اتّصال النّعت بالمنعوت.

وإذا بنا مضطرُّون حتّى اليوم باسم الفصاحة إلى أن نصل المضاف إليه بالمضاف وصْلاً لا يدفعنا إليه النّظام الوظيفيّ الخاصّ للعربيّة.

وإن صحّت فرضيّتي عكَسَ التّرتيبُ الّذي حافظتْ عليه الفصحى ترتيبًا وظيفيّا محتومًا، فمن المرجّح أنّ اللّغة العربيّة كانت في ذلك الزّمان السّحيق تستغني عن الكسرة، لا كأداة صيغيّة، بل كأداة وظيفيّة، وأنّ العرب كانوا حينذاك يقولون: "هذا لبَاسُ رجُلاً" و"هذا لبَاسُ دَعْدَ". وإن صحّت فرضيّتي عكسَ قصرُ الأعلام على الضّمّة والفتحة حالاً وظيفيّة كانت قبلُ.

وتقوم فرضيّتي على أساس من الصّحّة إن كانت الأعلام حقًا تُفيد علاقات أصحابها بمجتمعهم، وإن كانت قد تطوّرت حقّا تطوُّرًا أشدّ بُطْئًا من سائر الأسماء، فإنّ اللّغة تطوّرت، ولم يقرَّ قرارُها في ذلك الزّمان الّذي ذهبتْ بنا إليه فرضيّاتٌ افترضتُها، تطوّرت تطوُّرًا له أسباب كثيرة، ألسنيّة وغير ألسنيّة منها سببٌ معروف، هو القياس الّذي له في العربيّة ما له من

تأثير، فإنّ الكسرة - إذ إنّها لا تختلف عن أختيْها الضّمّة والفتحة إلاّ بجرسها - كان لها أن تفعل كلّ ما تفعل الضّمة والفتحة، لقد كانت تفعل ما تفعلان في ميدان الصّوْتميّة، وفي ميدان الصّيغيّة، أي كانت تساويهما مساواة لفظيّة، ومُساواةً صيغيّة، فصارت تلعب دوْرًا في ميدان الوظيفيّة، ولكن ظلّ دورها الوظيفيّ دورًا ناقصًا، فإنّها لا تزال علامة وظيفيّة زائدة.

قال أحد النُّحاة من الطّويل:

موانعُ صرْفِ الاسْمِ تسعٌ فهاكها
مُبيّنةٌ إنْ كنْتَ في العلمِ تحـــرص
فجمعٌ وتعْريفٌ ووصْفٌ وعُجمَةٌ
وعدْلٌ وتأنيــثٌ ووزْنٌ مخصّص
و ترْكيبُك الاسميْنِ و الألفُ التي
مع النُّون زيدًا، والجميعُ مُلخّص

فنستفيد من هذه الأبيات شيئين:

أوّلُهما أنّ العرب سمّوا الأشخاص بأسماء تعّددت صيغها تعدُّدًا عندما أطلقوا على أنفسهم ألقابًا صارت على مرّ الزّمان أعلامًا كسائر الأعلام، أضافوها إلى أعلامهم الأصلية، وهي في بدء الأمر أفعال أو صفات أو أسماءٌ مشتركة، أذكُرُ منها "أحمد" و "يزيد" و "شعبان" و"رمضان" و "معاوية" و "عقرب".

أمّا الشيء الثّاني فهو أنّ العرب صاروا على مرّ الزّمان يرون

أنّ أعلامهم لم تكن ممنوعة من الصّرف لعلميّتها فقط، بل لعلميّتها ولعلّة أخرى من العلل الثّماني المذكورة في الأبيات الّتي تمثّلتُ بها، حتّى جعلوا تلك العلل الشّكليّة عللاً تمتنع لها من الصّرف الأسماء المشتركة الّتي كانت أشكالها تماثل أشكال الأعلام، فقالوا " أحْمَرُ" و " أكْبَرُ".

فالقياس وسّع ميدان تطبيق المنع من الصّرف، فقالوا "حمْرَاءُ" فـ "خُلفاءُ" فـ "أصْدقاءُ" وأُكابرُ فـ "أوانيسُ" فـ "شواهدُ" فـ "مساجدُ".

والقياس قلّص بالعكس ميدان تطبيق منع الصّرف كلّما لم يكن شكل الوحدة الدّلاليّة شكلاً ينفرد بميزات خاصّة له، تُثْبت امتناعها من الصّرف، فقالوا "دعْـدٌ" و "نُـوحٌ" و "حُمْرٌ".

وهذه الأسماء المشتركة الّتي صارت تمتنع من الصّرف لعلل، يظهر أنّها علَل شكليّة، عادت تمكّنها الأمكن إذا دخلتْ عليها أداة التّعريف أو تعلّق بها اسمٌ أضيف إليها، أي إذا انصرمتْ كلّ وشيجة تصلها بالأعلام، إذ إنّ الأعلام لا تدخل عليها أداة التّعريف، ولا تضاف، دون أن تُنكّر شيئًا ما.

حوليّات الجامعة التونسية العدد 24 لسنة 1985

من مقال بعنوان: "بحث زماني عن الاسم العربي

ص ص 41 ـــــ 63

ما قال فيه أصحابه ومريدوه

"اللّغة عشق أندري رومان الكبير هي اللغة العربية التاريخية التي سيكتشف شيئًا فشيئًا أسرارها، ويبني لبنة بعد لبنة "نسق أنساقها"، في بيروت انطلقت الشرارة الأولى بلقاء علْمٍ كان النّاس يعيدون اكتشافه إذ ذاك، هو علم الأصوات. وفي آكس آن بروفانس وليون امتد العمل الشامخ، وتوسّع، وفيهما تمّت رحلة الاكتشاف الهادئ الرّصين"

جوزاف ديشى وحسن حمزة من الكتاب التكريمي

الذي ألّف بمناسبة إحالة الأستاذيْن أنور لوقا وأندري رومان

على التقاعد (28 و 29 مارس 1997)، ص 12.

تحيّة إكبار وتقدير لأندري رومان

صديقي العزيز

عندما أعلمني منظّمو هذه الأيّام بأنّهم اختاروني لأعبّر عن التّقدير والاحترام الذي يحمله لك زملاؤك، استغربت أوّل الأمر، فلا شيء يؤهلني لهذا الشرف: فأنا لست مختصًّا في اللغة والآداب والحضارة العربيّة، ولا أنتمي إلى الكلية التي تنتمي إليها، ثمّ إنني لم أعد من زمن بعيد أباشر أي وظيفة رسميّة في جامعتنا.

فالاحترام والصّداقة التي يعرفون أنّني أكنّهما لك، هما ما يرشحني لأوصل لك تقدير زملائك ومودّتهم.

سيداتي سادتي زملائي الأعزاء

(...) وبعد ذلك بسنوات، وفي جلسة من جلسات مجلس الجامعة، علمتُ أنّ لجنة المختصّين ذات النّظر اقترحت على المجلس تسمية أندري رومان أستاذ عربيّة. هرعت لأوّل من رأيت من أعضاء هذه اللجنة؛ لأعبّر له عن تهانيّ. كانت سيّمون سيّار هي التي أجابت، قائلة: "نحن أيضًا يتسنّى لنا أحيانًا أن نختار الأحسن". وتسمح عشرتي الطويلة للجان المختصّين أن أؤكد أننا عندما نختار الأحسن لأنّه الأحسن، فمعنى ذلك أنّه الأحسن بإطلاق".

(...)

وإذا أردنا أن نرسم بخطوط عريضة صورة أندري رومان الأخلاقيّة، فإنّه قد يتعيّن - بلا أدنى شك - أن نشير إلى مُفارقة، وهي التوفيق، توفيقٌ فيما نتصوّر لا بدّ أن يكون غير مريح أحيانًا، بين الصّرامة عند الاعتبار النّظري للأفكار، وسماحة ورفق مع الأشخاص، وبهم.

مفارقة ثانية نشير إليها، وهي المواجهة الصّعبة بين التّقاليد الاستشراقيّة المستندة على التراث النحوي العربي، وبين ما حققته اللسانيّات العامة اليوم من تقدّم. وعلى هذا النّحو فإنّ أغلب أعمال أندري رومان، - ولا سيّما أطروحته - أسهمت إسهامًا ليس قليلاً للتعريف بالتقاليد النحويّة العربية، وفي المقابل أسهمت في إخراج المستعربين من عزلتهم الإبستمولوجيّة.

ومن الدروس التي نحتفظ بها عنه، أذكر ضرورة عدم الفصل بين اللّسانيات وعلوم اللغة، أو الفيلولوجيا، مع الاحتفاظ بالفرق بين المقاربتين، وأذكر هذا الدّرس الآخر، وليس فيه مفارقة إلاّ في الظاهر، وهو أنّ التناول كلّما كان منقطعًا للحديث، سمح لنا أن نعود إلى مناطق من الماضي قصيّة.

ميشال لوڤارن

الكتاب التكريمي المذكور
ص ص 29 ـ 31.

أندري رومان (1928 – 2012)
ANDRÉ ROMAN

مُستعْربُ فرنسي ولد بتونس وتعلّم بها الى شهادة البكالوريا. تعود صلته الأولى باللغة العربية الى دراسته الابتدائية بمنطقة الجريد بالجنوب التونسي. جمع تكوّنه اللغوي بين المعرفة المعمقة بأمهات النحو العربي والإحاطة بما جدّ منذ طلائع القرن الماضي من تحول عميق في النظر الى اللغة في مكوناتها جميعها، ومن ثم كان جهده الأكبر في إيجاد المنهج الذي يمكّن من التأليف بين علم القدماء وتصورات المحدثين. فكان المنوال الذي بناه للنحو العربي منوالاً فريداً لا يدرك أبعاده إلاّ من يشاركه في هذا المشروع وأغلبهم من العلماء العرب الذين سكنهم ما سكنه من طموح.

عارف بعدد كبير من اللغات الهندية الأوربية واللغات السامية ومؤمن بأن اللغة العربية بخصائص مكوناتها، هي اللغة الوحيدة التي تستطيع أن تمدنا بصورة عما كانت عليه اللغات الأولى. من أهم كتبه: "نحو اللغة العربية النسقي"، "الخلق المعجمي في العربية، موارد أنظمة لغة بشرية طبيعية وحدودها"، "رؤية بشرية للقيامة: كتاب التوهم للمحاسبي"، "بشّار وتجربته في العشق والمحبة: شعره في عبدة".

حمادي صمود

أستاذ التفكير البلاغي القديم ونظريات الأدب بالجامعة التونسية وبالجامعات الفرنسية. يؤلف باللغتين العربية والفرنسية. له إلى جانب الكتب المؤلفة بالعربية مساهمات في دوائر معارف ذائعة الصيت كدائرة المعارف العالمية (Universalis) ودائرة الآداب العالمية وفي مجلاّت لها باع نظري واسع كمجلة "بوتيك" (Poe'tique) كما نشر في مجلة "إبلا" (Ibla).

ISBN 978-9920-627-19-1

الدار البيضاء/بيروت
+212522810406 / بيروت:+9611747422
markazkitab@gmail.com